روبيـــر دول

# الكابوس الأميركي

محاولة ناقدة لآثار الطهرانيّة في الذهنيّة الأميركيّة الحاليّة

ترجمة
الأب الياس زحلاوي

تأليف روبيـــر دول

الكابوس الأميركي

ترجمة الأب الياس زحلاوي

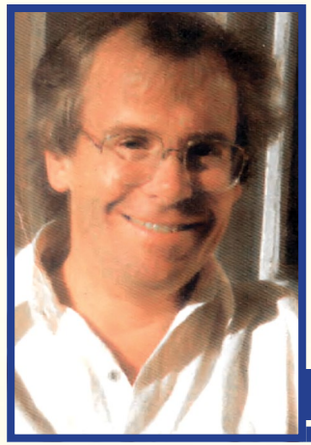

روبير دول

ولـد روبـير دول عـام 1946 في أحـد أحياء واشنطن الشعبية جـداً، حيث يتجاور الزنوج والبيض في فقر وعداء.

تخرج من جامعة هارفرد عام 1968، وقرّر على الفور مغادرة الولايات المتحدة إلى غير رجعة. وكان يتقن آنذاك سبع لغات. تنقّل في أوروبـا، بين جامعاتها، فـدرّس في جامعة ميتز METZ (فرنسا)، وجامعة بون BONN (ألمانيا)، ولودج LODZ (تشيكيا). وفي عام 1977 قرّر السّفر إلى كندا، حيث استقر فيها نهائياً، وحيث يُدرِّس في جامعة شيكوتومي، بمقاطعة "كيبك". وفيها كتب ونشر محاولته هذه باللغة الفرنسية عام 1996.

2014

# الكابوس الأميركي

## محاولة ناقدة لآثار الطّهرانيّة في الذهنية الأميركية الحالية

تأليف

روبيـــر دول

ترجمة

الأب الياس زحلاوي

**حقـوق الطبــع محفوظـة للمؤلف**

**الطبعــة الأولى**

2014

**ترخيص رقم /  / تاريخ  /  /**2014

**تنفيذ**.....

"سوف يهرب النائمون لديَّ إلى أميركا أخرى".

جان جينيه Jean GENET

# الأب الياس زحلاوي ومعرفة المسيح

محمد سعيد حمادة

عندما بدأ الأب الياس زحلاوي ترجمة هذا الكتاب عام 2004، أي في قمّة مرحلة العماء العالمي، المؤمن بالدور "الرسولي" للولايات المتحدة الأميركية، ومن ثم الغرب عموماً، ودفعه لي كي أنشره على حلقات في مجلة "رؤى ثقافية"، التي كنت أصدرها حينها، بدا الأمر، يومذاك، بالنسبة للأغلب الأعمّ من مثقّفينا ومتابعي المجلة، أنه محاولة إيهام بهشاشة العقل الأميركي من جهة، وإعطاء جرعة أمل في البقاء، لمريض مقبل على الموت من جهة أخرى، والمريض المعنيّ هو ذاك العقل المتمسك بأنّ ما يحدث في العالم، وما تفعله أميركا فيه، عرضي ووقتي وزائل. خصوصاً وأنّ "رؤى ثقافية" كانت متهمّة بـ "وطنية" شعرية و"قومية مستهلكة"، بينما كنت أبدو، وأنا أكتب افتتاحياتها عن الشهداء وأطفال فلسطين وحق العودة والمقاومة، كرجل يعيش في ماضٍ سحيق. والواقع أنني عندما تلقّيت الحلقات الأولى من الكتاب وقرأتها، لفّتني هالة من الفرح والغرور، تمثّلت في أنّ هناك مَن يدعم تفكيري، في أنّ ما نراه من اجتياحٍ للقوة الأميركية، هو عارض وزائل لا محالة، إذا ما استطعنا الوقوف بوجهه، بقوة التمسك بحقّنا في وجود نراه نحن، ولا يراه غيرنا لنا من جهة، وإذا ما قاتلنا بصبر، من جهة أخرى، لالتقاط أنفاسنا وإقناع العالم بأحقيّة رؤيتنا لما يجري حولنا وفي العالم.

هالة الفرح والغرور التي تحدّثت عنها، جاءت من أنّ مفكّراً بقامة الأب زحلاوي، يدعم هذا الذي نؤمن به عن معرفة وعلم، وأنّ وجوده

في الهيئة الاستشارية للمجلة، هو قناعة منه بتوجّهها وخطّها الداعم للمقاومة وثقافة العقل. وقد أيقنتُ يومها أنّ دفع الأب زحلاوي هذا الكتاب للنشر، في عصر التبشير الثقافي بشروط كولن باول، هو طريقة ناعمة لتمرير رؤية، مفادها أنّ ما يحصل في العالم، هو حدث عابر وديناصور لعبة على الطريقة الهوليودية، أوشكت تغذيته على نهايتها، لأنّ أصل فكرته واهٍ وهشٌّ. هذا لأنّ الأب زحلاوي، وهو جرأة عميقة، ووطنية نقيّة، وعروبة شفّافة، وإيمان حقّ بالمسيح المخلّص المحب، يعرف يسوعنا السوري، الذي جاء مخلّصاً ومحضِّراً للبشرية، وباعثاً لقيمها السامية، فلم يستثنِ شعباً دون شعبٍ، وليس من شعبٍ مقدّسٍ ويمتلك الحكمة دون غيره. يسوع وحده، باعتقادنا، الحكيم المقدّس، الذي لم يدعُ إلى فردانيّةٍ بغيضةٍ تقدّس المال، وكانت سبباً رئيساً في الجشع الرأسمالي، الذي وجد له تبريراً دينيّاً عند طهرانيّي القرن السابع عشر، وتلقفّه طهرانيّو عصرنا في أميركا، متناسين قول المسيح من أنّ بيتاً تأسّس على عبادة المال، لا يمكنه الاستمرار في البقاء. وكأنّ الأب الياس زحلاوي قد قام بترجمة هذا الكتاب، انتفاضةَ حقٍّ أزليّةً انتفضها يوحنا المعمدان: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات، فإنّ هذا هو الذي قيل عنه بأشعياء النبي القائل صوت صارخٍ في البرية، أعدّوا طريق الربّ، اصنعوا سبله مستقيمة" (متّى، الإصحاح الثالث).

هذه الانتفاضة هي التي يلخّصها روبير دول في هذا الكتاب، الذي يفضح العقلية الإمبريالية الأميركية، التي تقوم على فكرة الاستعلاء المستمدّة من الطهرانيّة، وهي كشف علمي عميق، للماورائيات المأزومة التي تحرّك أفعالها العدوانية، وللبنية الفكرية التي تسيطر على عقل الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة.

فإذا كان "وليم ستاغتن" قد عبّر بشكل واضح عن العلاقة بين الطهرانيّين والله بقوله: « إنّ وعودَ الله وتوقّعاته قد حدّدت "إنكلترة الجديدة"، وجميع الناس الساكنين بيننا، كي يكونوا فوق جميع أمم العالم وشعوبه »، فإنّ وزيرة الخارجية الأميركية في أواخر القرن العشرين، "مادلين أولبرايت"، قد أعادت الفكرة نفسها بقولها "إننا أمة تعلو هامتُها فوق الشمس، ولهذا ترى ما لا يراه الآخرون". وقد قال كلينتون كذلك، أمام الكونغرس الأميركي، "إنّ الولايات المتحدة هي أفضل بلد في العالم". وما قول أولبرايت وكلينتون إلا ترجمة لقسَم الولاء الذي يردّده الطلبة في أميركا يوميّاً: "أمّة واحدة بعد الله"، ولأنها بعد الله فهي تقتل بتكليفٍ إلهيٍّ كي تثبت تفوّقَها على غيرها من الأمم. وما قتل الأبرياء في العراق وأفغانستان، وقبلهما في فييتنام وغيرها، إلا تعبيرٌ عن هذه الخصوصية الإلهية. ولأنّ "روبير دول" يعدّ نفسه أحد تلامذة "تورو"، الذي اخترع العصيان المدني في بريطانيا، فقد هرب "دول" من الولايات المتحدة كي لا يدفع الضرائب لوزارة الدفاع الأميركية، ويكون شريكاً في القتل الذي تمارسه بلاده ضدّ شعوب العالم الفقيرة.

في هذا الكتاب يبيّن "دول" التزامن الحاصل بين ظهور كلٍّ من البروتستانتية والرأسمالية، ويفضح الحرية الأميركية التي جعلت "ثلث الأميركيّين في حكم الأميّين"، وهي حرية التعبير عن رأي الطبقات المسيطرة في أميركا. ذلك أنّ كثيراً من الأميركيّين، ولا سيما الزنوج، لا ينالون حريتهم إلا بالموت. واحتجاجاً على عقلية الاستعلاء الأميركية والغرور الرأسمالي، يرفض "دول" الكتابة بالإنكليزية، ويكتب بالفرنسية، علماً أنه تخرّج في جامعة هارفرد عام 1968، وهو يتقن سبع لغات. هذا لأنّ إيمانيّةً ثوريّةً تغلب على تفكيره: "فنمة نبيّ يجد أنَّ بلدَه

**يهين الله، فيملأه هذا الأمر بالحزن والغضب في آن واحد، وينتابه شعور يستحيل التعبير عنه، من البغض والحب حيالَ شعبه"، ولأنه أقام "تمييزاً واضحاً بين ديانة الكهنة وديانة الأنبياء"، كما يقول في كتابه هذا.**

**لا يفوتني أخيراً أن أشكر الأب الياس زحلاوي، الذي شرّفني بكتابة هذه المقدمة، وهو المفكّر الذي يعرف كيف ينقّي البيدر، ويجمع الحبّ، ويحرق التبن، اقتداءً بيسوع.**

# مقدّمة المؤلف

**"لقد فُرِضت الفوضى الخالصة على الدنيا**
**واندفع المدُّ الدّمويّ**
**وتلاشت الإشادة بالبراءة من كل مكان.**
**خيرةُ الناس يفتقرون إلى الاقتناع،**
**فيما الأشرار مشحونون بهوىً عاصف".**

**ف. ب. ييتس** W.B.YEATS

**إنّ الفرضيّة الأساسيّة للمحاولة الراهنة، تؤكّد أن الذهنية الأميركية المعاصرة، هي نتاج طُهرانيَّة القرن السابع عشر. هذه الفكرة تبدو، للوهلة الأولى، تافهة، لا سيما إذا فكّرنا في النفاق السائد بشأن الحياة الجنسية - من ذلك، أنَّه لا يحق للسياسيين أن يفعلوا ما يفعل سائر المواطنين - أو في حركة "المسيحيّين المتجدِّدين".**

**ومع ذلك، فإنّ ما يثير اهتمامي، إنّما هو آثار الذهنية الطّهرانية، وبالتحديد حيث لا يشتبه بها لأول وهلة. وأعني بذلك، في ما أعنيه، السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية، وحركة تحرّر اللوطيّين، والحركة النسائية الأميركية. فالأميركيّون يرون أنّ كلَّ تدخّل عسكري أو سياسي في البلدان الأخرى، يجد تبريراً له في أنَّ الأميركيّين هم أبداً شعب الله المختار، الأمر الذي كان طهرانيّو القرن السابع عشر مقتنعين به اقتناعاً تاماً. ولقد ورثت الحركة النسائية الأميركية هذا التقليد الفكري أيضاً، فمُنحَت النساء وضع شعب الله المختار إزاء الرجال الساقطين. أما الحركة اللوطية، فهي مظهر من مظاهر "تقليد**

الاعتراف العلني" الذي يلعب دوراً أساسياً في السلوك الطُهرانيّ. وإنَّ اكتشاف الصِلات بين عظات قساوسة القرن السابع عشر، وتمفصلها بالحركات اللوطية أو النسائية، لن يكون دائماً مهمّة سهلة، ولكنَّ متعة التفكير فيه، لا تقلّ أهميّة عن التحدّي الذي يُشكّله.

إليكم فرضيتي:

ثمّة طبعٌ أميركي يقوم في غفلةٍ من الأميركيين، وثمة ذهنيةٌ أميركية وسلوكٌ أميركي، وكلّها تخصّ الشعب الأميركي، وتميّزه عن قوميات أخرى.

بالمقابل، فإنّ الأميركيين يميلون إلى الاعتقاد بأنّ ذهنيّتهم ذهنيّة عامّة. فإنّ طريقة الأميركيين في التفكير والعمل، تعود إلى القرن السابع عشر، وهم يعتقدون، بصورة عامّة، أنَّ سياسات حكوماتهم وعلاقاتهم الشخصية، تنحدر من طبيعة الإنسان العامّة، ومن قوانين المنطق. فهم، بالتالي، لا يرون ما هو فريد لديهم، ولا يفهمون إذن الصدمة الثقافية التي يعيشها العديد من الأجانب، عندما يصلون إلى الولايات المتحدة.

والأميركيون يعتقدون أيضاً أنّ ميولهم الحالية هي عصرية بالكلّية. وقد تُفاجئُهم فرضيّتي بشأن التأثير المستمرّ لماضيهم الطُهراني. ويبقى، في رأيي، أنَّ الطابع الأميركي قد صاغته الخبرة الطُهرانيّة، التي خلّفت وراءها آثاراً كثيرة، بعضها واضح، ولكنّ بعضها الآخر أدقّ من أن يُلحظ من النظرة الأولى. فالمصالح الأميركية تتبدّل، وتتبدّل أيضاً الميول الاجتماعية والفلسفية. ولكن ثمّة عنصر ثابت في الطبع الأميركي، وهو بالتحديد هذا الذي أريد العثور عليه لدى الأجداد الطهرانيّين. وإزاء جميع هذه الأفكار الجديدة، "السليمة سياسيّاً"، التي تتكشّف عاماً بعد عام، أجد لديّ ردّ الفعل التالي: وهو أنّه كلَّما ازداد التغيير، ظلَّت الأمور على ما هي عليه.

سأركّز على جوانب أربعة من الذهنية والحياة الطُهرانية في القرن

السابع عشر، وعلى آثارها في القرن العشرين: وهي الفردانيّة، والتقسيم بين مختاري الله وغير المختارين، والقسوة، والاعتراف العلني.

سأُبيّن أنّ هذه الجوانب من الذهنيّة الطّهرانيّة، حاضرة في الحياة المعاصرة في الولايات المتّحدة، كما نجدها مطروحةً في روايات جويس كارول أوتس، الحديثة. وأخيراً سأبيّن ما لدى مؤلّفين آخرين، من أفكار فيها نقد للسأم الاجتماعي والروحي، الذي يعاني منه الأميركيّون اليوم.

إنّ آثار الطُهرانيّة التي سأتصدّى لها هنا، ليست مقتصرةً على الولايات المتحدة، وإن كانت تجد فيها أصلها. فالقرن العشرون هو القرن الأميركي بامتياز. والميول الاجتماعية والثقافية التي تنشأ فيها، تنتشر في جميع بلدان العالم، لا سيما في البلدان الرأسماليّة المتقدّمة. ومنذ انهيار الاشتراكيّة في أوروبا، وفي غيرها من البلدان، لم يعد ثمة شيء يحول دون أمركة الكرة الأرضيّة. وإنّ انتقاد الوضع الراهن لبلدي الأصلي، يمكنه أن يُتّخذ بمثابة تحذير لسائر البلدان، التي تواصل الاقتداء بالنموذج الأميركي، أو التي قد يغريها هذا النموذج. وإنّ السأم الروحي والاجتماعي، القائم اليوم في الولايات المتحدة، قابل جداً لأن يتجدّد في المجتمعات التي تتخلّى عن طريقة عيشها التقليدية، كي تتبنّى طريقة المجتمع الاستهلاكي.

ومع ذلك، فإنّ الغاية من هذا الكتاب، ليست انتقاداً لكل ما يحدث في الثقافة الأميركية المعاصرة، بمقارنتها بمظاهر التطرُّف لدى أجدادي الطهرانيّين. وإنّي، بالأحرى، أحاول أن أجد في الأصول البعيدة، ميولاً أفضت إلى الظواهر الثقافية الحالية.

بالطبع، إنّي أدين أشكال القسوة الأميركية، مثل قصف المدن الكبرى، وعقوبة الإعدام، وغياب البرامج الاجتماعية. فإنّ القسوة التي تحرّك هذه الظواهر، تُشكّل جزءاً لا يتجزأ من تقليد في القسوة، يجد جذوره في ممارسة طهرانيّة القرن السابع عشر. فالأميركيون،

**اليوم، يسلّمون بأنّ العنف منتشر في جميع جوانب الحياة الاجتماعية. وهم يقولون: "إنّ العنف أميركي بقدر ما هي أميركية فطيرة مُربّى التفاح". أذكر مخالفةً تعرّضت لها في واشنطن، بسبب توقفي في مكان ممنوع، وقد كتب عليها بأحرف كبيرة كثيفة: "كلّ من يعتدي على شرطي، سيعاقب بأقصى عقوبة وفقاً للقانون".**

**يبدو إذن أنَّ ردّ الفعل المألوف على كل مخالفة، هو الاعتداء على الشرطي الذي يصدرها. ومع ذلك، فإنّ الأميركيين لا يتحدّثون عن الظاهرة التي أسمّيها القسوة الأميركية. على أنَّ كل فعل عنيف ينطوي على قسوة. إنّه لأمر غريب حقّاً، أن يقرّ شعبٌ ما بعنفه، ويُنكر في الوقت نفسه طبعه القاسي.**

**إن كنت أدين القسوة، فليس لديّ ما آخذه على الاعتراف العلني. وأنا أميل أيضاً إلى تقسيم العالم إلى طبقتين: المختارين وغير المختارين. وإنِّي لأرى أنّ المختارين هم المستغَلُون، فيما غير المختارين هم المستَغلّون. وما يلائمني على الوجه الأكمل هو الدمج بين الطُهرانيّة والماركسية. ولذلك، فإنّي أستطيع أن أتعاطف مع الحركات النسائية، واللوطية، التي تنحدر من التقليد الطّهرانيّ، دون أن أُقرّ بأعمال القسوة التي ترتكبها الحكومة الأميركية، وهي أعمال تنحدر من التقليد عينه.**

**إنَّ محاولتي الجمع بين الصفات الصالحة والسيئة للطُهرانيّة، ترتبط بتاريخي الشخصي. فأنا أعرف حقّ المعرفة أنَّ عيوبي إنَّما هي عيوبٌ طهرانيّة، وأنَّ فضائلي إنَّما هي فضائل طُهرانيّة، ذلك بأني أنحدر، سواء من جهة أبي أو من جهة أمي، من عائلات طهرانيّة عاشت في "انكلترا الجديدة" منذ عام 1620. وإنَّ عبء إرثي العائلي كان من الثقَل بحيث احتجت إلى ستّ وعشرين سنةً في المنفى، كي أبدأ بتفهّم أهمية تأثير الطُهرانيّة على طريقتي الخاصة في العيش ورؤيتي للعالم. ولذا ستكون هذه المحاولة، غوصاً في الأعماق الشخصية**

والجماعية على السواء. وبهذا المعنى، ستشكّل هذه المحاولة سيرةً ذاتيّةً لإحدى القبائل، أعني بها قبيلة الطُّهرانيين وأحفادهم.

ينبع جهدي في وصف الذهنيّة الأميركيّة، من جهودي في فهم ذهنيّتي الخاصّة. وإنّي لا أنكر البتّة أنّ طريقتي في التفكير والعمل، تظلّ في جوهرها أميركيّة، على الرغم من أنّني أمضيت كاملَ فترة البلوغ من حياتي، في الغربة. لقد نشأت في بيئة تمثّلها الذهنيّة الطُّهرانيّة تمثيلاً تاماً. وهذا يعني أنّ أهلي وُلِدوا في "إنكلترا الجديدة" عام 1903. وهم بالتالي اكتسبوا أُسسَ تربيتهم قبل الحرب العالمية الأولى، وهي الفترة التي تحدّد من وجهة نظر ثقافيّة واجتماعيّة، بداية القرن العشرين إلى حدّ ما. وكان والداي في الثالثة والأربعين عندما وُلِدتُ. وبسبب ذلك، سمعت في البيت تعليقات تُذكّر بفترة بعيدة من التاريخ الأميركي، من ذلك أنّ والدي كان يخشى عليَّ فقدي وظيفتي كمدرّس للّغة الإنكليزية، في جامعة شيكوتومي في كيبك، لأني كنت ترجمت عن الألمانية إحدى قصص ستيفان سفايك، وهي تنتهي بمشهد غرامي! وفي أسرتي، كلّما كان يُذكَر خبر عن اثنين يعيشان معاً دونما زواج، كان من الطبيعي أن تسمع صراخاً يقول: "هذا معيب".

فأنا إذن أشبه بجاسوس في بلد آخر الطُّهرانيّين الحقيقيّين، وقد تبدو مصارحاتي أشبه شيء بفعل الخيانة.

إلاّ أنّي، مع ذلك، لا أعتبر نفسي خائناً. إنّما كان عليّ أن أتخلّى بكل بساطة عن بلدي الأصلي، كي أجد سلاماً داخلياً. ذلك بأنّي لم أكن أستطيع التوفيق بين قِيَمي، وقِيَم المجتمع الأميركي في أواخر القرن العشرين، وقد كنت أكنّ لبلدي حبّاً أعظم من أن أسلِّم بالبقاء فيه متفرّجاً على انحطاطه.

اتخذتُ قراراً بقضاء حياتي البالغة في المنفى، عام 1968، أي في الثانية والعشرين من عمري، وذلك أسبوعاً واحداً بعد أن نلت شهادة

تخرّجي في جامعة هارفارد، وهي قلعة الطّهرانييّن. وأمضيت تسع سنوات في أوروبا، وثمانية عشر عاماً في (شيكوتومي)، أهلّتني لأن أرى بلدي بمنظار إنسان غريب. وأعتقد أنّي أعرف ما هو فريد في الولايات المتحدة، لأنه تسنّى لي أن أُلاحظ في بلدان أخرى، غياب هذه الظواهر الأميركية الصرف. فإنَّ منظوري الثلاثي، الأميركي والأوروبي والكندي، سيضفي على خواطري تعابير أصيلة، قد تكون أحياناً غريبة. وكلّما تقدّمتُ في السنّ، تبيَّن لي ما تنطوي عليه أعمق أفكاري من طابع أميركي صرف. وبذلك يزداد افتخاري السّري بها. فإنَّ عدم امتثاليّتي مثلاً، يُشكّل جزءاً لا يتجزّأ من التقليد البالغ الفرديّة لفلاسفة "إنكلترا الجديدة"، وخصوصاً فلاسفة صورية القرن التاسع عشر، الذين يُعتبر "هنري دافيد تورو" أبرز ممثّليهم. فقد رفض "تورو" أن يدفع الضريبة الشخصية، تعبيراً عن احتجاجه على نظام الرقّ، وعلى شنِّ الحرب على المكسيك. وإنِّي لفخورٌ جدّاً، لأني لم أُعطِ يوماً فلساً واحداً كضريبة للحكومة الأميركية، لأنّ وجداني كداعية للسلام، لا يُبيح لي أن أُساهم في مناوراتها الحربية.

عندما غادرتُ بلدي التعس، كنتُ شابّاً غاضباً على مجتمع بدا لي بمثابة إمبراطورية الشّر. لم أكن أهرب من الحرب وحسب، ولا العنصرية ولا الماديّة ولا العنف. بل كنتُ أيضاً أهرب من الأميركيين أنفسهم، ذهنيتهم، ثقافتهم، سلوكهم، عُقدِهم، سوقيّتهم، لغتهم... والآن وقد قاربتُ الخمسين، فقد تحوَّل غضبي إلى شفقة. وما كنتُ أراه في السابق شرّاً أخلاقيّاً، أصبح في نظري مرضاً اجتماعياً مستفحلاً. والحال أنَّه لا تجوز النقمة على مريض يحتضر. إلاّ أنِّي أحتفظ، مع ذلك، بمسافة. وأعرف أنِّي أعاني من قلق ميتافيزيقي، كلمّا ذهبتُ إلى الولايات المتحدة. فأُسارع بالعودة إلى كيبك، حيث أشعر بالحرية والأمان... لم أتبنَّ يوماً قِيمَ المجتمع الأميركي. فمادّيته ونزعته العسكرية تثيران اشمئزازي اليوم كما بالأمس. وإنَّي لأجد عزائي في التفكير بأنه لو تسنّى لكلٍّ من

أجدادي الطُهرانيّين، أن يعود إلى الوجود، لكان اقتدى بي، وحمل أمتعته واتّجه بها نحو بلد آخر أو كوكب آخر.

آثرتُ أن أكتب هذه المحاولة بلغة موليير، وليس بلغة شكسبير، كي أُبرز انتمائي إلى الثقافة الفرنسية. وإنَّ وجهة نظري، إذ أنظر إلى الولايات المتحدة، إنَّما هي وجهة نظر إنسان غريب. وإني لأرجو أن يُظهِر قُرّائي الناطقون بالفرنسية، من التعاطف أكثر ممّا قد يُظهره الناطقون بالإنكليزية. وفي الواقع، فإنَّ هذا الرجاء يتيح لي أن أّعبّر عن أفكاري بمزيد من الحرية. على كل حال، أتساءل ما إذا كنتُ سأتحلّى بشجاعة تُمكّنني من كتابة هذه المحاولة باللغة الإنّكليزية، وأنا أعلم أنَّ أمثال "تيموثي مكفيغ" وأضرابه من اليمين الأميركي المتطرِّف، سيقرؤونها... وإنِّه ليسعفني حقّاً أن يكون الجهل باللغات الأجنبية من عادات وتقاليد الفاشيّين.

من ناحيتي، فقد كنتُ أتقنت سبعَ لغات، لكي أتيقّن من أنَّ اتصالاتي ومراجعي الثقافية، لن تُحَدَّ بحدود بلدي الأصلي.

يحتوي هذا الكتاب شواهد كثيرة لمؤلِّفين أميركيين، كي أُبيِّن مدى انتشار خيبة الأميركيّين حيالَ بلدهم. وقد قمتُ بنفسي بالترجمة، باستثناء نصوص "ماكس فيبر".

أهدي هذا الكتاب لذكرى عطِرة ومرّة، هي ذكرى صديقي "مارك فريشيت". ( وأكتب كنيته ذات الأصل الكندي دونما تغيير، لأنه وُلد في الولايات المتحدة واحتفظ بهذا الاسم كما هو).

ذكراه عطرة لأنّه أغلى أصدقائي، ذاك الذي أحببته وأُعجبت به أكثر من الجميع. وذكراه مُرّة، لأنّه قُتِل في السجن وهو في السابعة والعشرين، وكان جديراً بحياة أخرى، وبموت غير ذاك.

عرفته في كمبردج عام 1966. كنت في العشرين، وكان في الثامنة عشرة، وكلانا من الهيبيّين، في ذروة التمرّد على المجتمع الأميركي. كنت أدرس في (هارفارد)، وكان هو يبيع الماريجوانا. وكان يُشاطرني غرفتي في المدينة الجامعية. وعندما بَلّغتُه، عام 1968، قراري العيش في

المهجر، وصفني بالخائن، وقال لي إنَّ بلدي بحاجة إليّ، وإنَّني لن أكون طوال عمري سوى سائح. وإنّي لأشعر، بمعنى ما، أنِّي مذنب، لأني تخلّيت عن وطني. إلاّ أنّه ما كان تسنّى لي أنَّ أفهمه جيداً، لو لم أرَه من الخارج طوال سنوات كثيرة. وإنَّي لأرجو أن تُعوِّض محاولتي الراهنة، بعض الشيء، عن إقدامي على التخلّي عن سفينة في غرق.

وفي عام 1968، بعد سفري بشهر واحد، اكتشف صديقي مارك، السينمائيُ الإيطاليُ "مايكل انجيلو انطونيوني"، وأخرجَ فيلماً قام فيه مارك بالدور الرئيس. إنَّه فيلم (زابريسكي بوينت). وبعد ومضة عابرة من الشهرة العالمية، نسي العالَمُ صديقي مارك. وفي عام 1973، أقدَمَ مارك على سطو مُسلَّح في مصرف كان يتعامل معه، وذلك بقصد الاحتجاج على المجتمع الاستهلاكي والإمبريالية الرأسمالية. وكان يتوقَّع أن تندفع الجماهير في إثره، فتقوم الثورة الاشتراكية. إلا أنَّ القاضي، في عجزه عن إدراك كنه هذا العمل، حكم عليه بالسجن سبع سنوات. وما كان غضب مارك سوى غضب نَبيٍّ يعرف أنَّ بلده ليس كما يريد الله له أنْ يكون.

قلَّةٌ هم ثوريّو الستينات، الذين لم يتخلّوا عن النضال وشعارات تلك الحقبة. وقد ظلَّ مارك، حتى النهاية، وفيّاً لتطلُّعه إلى أميركا أخرى. وكثيراً ما تساءلتُ: ما عساه كان يُفكِّر في اختياري كيبك، بلد أجداده، مقراً دائماً لي؟ هل كان تسنّى له أنْ يُدرِك أنّي أحمل شعلة تمرُّدنا حتى اليوم في المهجر، على نحو أفضل ممّا كان أُتيح لي، لو ظللتُ مقيماً في أميركا؟

قد تُعطي هذه المحاولة جواباً جزئيّاً عن سؤالٍ كان مارك، عندما كان في السجن، قد طرحه، وهو يتحدَّث عن السنوات الثلاث التي كنّا قد أمضيناها معاً:

"في الأعوام 1966، 1967، 1968، كان ثمة أمر خارق. وكانت أحاديثنا رائعة. أنا لم أتغيَّر. رحل الجميع. ترى أين مضوا؟"[1].

[1] صحيفة "The Boston Globe"، 1973/9/9.

# الفصل الأوّل

## الفردانيّة

"إنّي أمجّد ذاتي وأتغنّى بذاتي.
وإنَّ ما أفترضه، ستفترضه أنت".
"والت ويتمان"

إنَّ أكثر ما يُدهِش الإنسان القادم من مجتمع تقليدي، إذ يصل إلى الولايات المتحدة، هو فردانيّة الأميركيين المفترسة.

فالحياة تبدو صراعاً لا هوادة فيه، يخوضه كلُّ فردٍ مع الجميع. وخلف الابتسامات والدعابات المتدفّقة، ثمّة انعدام ثقةٍ وخوفٌ حيال الآخر. ويسود جوٌّ من التنافس. فالكلّ يريد أن يكون أكثر ثراءً وأناقةً من قريبه، وأوفر نجاحاً.

إنَّ جذور فردانيّة القرن العشرين، تغوص في ذهنيّة طهرانيّة القرن السابع عشر. فقد كان الطّهرانيّ وحيداً في علاقته مع الله. ولم يكن ثمّة كاهن أو كنيسة أو بابا، يستطيع التوسُّط بينه وبين إلهه. ويؤكّد أحد خبراء الطُهرانيّة، وهو "بيري ميلر" (Perry Miller)، قائلاً:

"إنَّ صورة الفرد التقيّ والمرتعد، الذي سجن ذاتَه مع كتابه المقدّس، ذاك الذي يَتَنَزَّه وحيداً برفقة الله، هذه الصورة كثيراً ما تُعتبر الرمز الحقيقي للفكر الطُّهراني"[1].

ما من شك أنَّ علاقة الفرد مع الله، هي العليا في جميع الديانات الموحِّدة في العالم. ومع ذلك، فهي تكتسي طابعاً استثنائيّاً في الذهنيّة الطُّهرانيّة، بحيث تنفي كلّ ما من شأنه أن يعكِّر العلاقات المباشرة، القائمة بين روح الفرد والله. ويترجم "تاونيه" (Tawney) هذا الأمر على النحو التالي:

"في حين أنَّ وحي الله لروح الفرد، هو مركز جميع الديانات، فإنَّ اللاهوت الطّهرانيّ كان يجعل منه معنى الديانة كلّه، وجوهرها كلّه، ويجعل منه المركز في آنٍ واحد. وكان يستبعد كلّ ما لا يخصّ هذه المشاركة السرّيّة والوحيدة، على أنَّه نفاية وباطل"[2].

إنَّ الطّهرانيّين، في سعيهم إلى جعل هذا الاتصال أكثر مباشرةً، قد جرّدوا الديانة من كلّ ما من شأنه أن يشكّل تشتّتاً، ومن كلّ ما من شأنه أن يخفي الله ويعرقل اتصال الفرد به. فليس ثمّة أي استعراض لأعمال فنيّة في كنائس "انكلترا الجديدة". كانت النوافذ شفّافةً والأبنية بسيطةً، وقد ألغى الطّهرانيّون من معتقداتهم، كلّ ما وجدوه نافلاً، مثل العذراء مريم والمعجزات. بل ذهب القائلون منهم بوحدانيّة الله، إلى استبعاد الثالوث. فقد كانوا، في الواقع، يؤثرون كثيراً العهد القديم على العهد الجديد، ذلك بأنّ شخصيّة يسوع بدت لهم وكأنها تدخل عنصراً إضافيّاً في العلاقة بين الفرد والله الآب.

لم يكن ثمّة إمكانيّة لغفران، لأنه لم يكن هناك معرّفون. فإنَّ الفرد يعيش وحيداً مع ضميره. وكانت قراءة الكتاب المقدّس أهمّ الأفعال الدينية. ولكن، هنا أيضاً، كان الأمر يعني الفرد الذي يقرأ في عزلة غرفته. وكانت هذه العزلة تُعَدّ جزءاً لا يتجزّأ من الحياة الروحية.

يُعتقد في الغالب أنّ كلمة "طهرانيّ" لا تُطبَّق إلاّ على صعيد الأخلاق الجنسيّة. ومع ذلك، فإنَّ الطُّهرانيّين أنفسَهم كانوا يرون أنَّ الكلمة تعني تطهير الديانة. وكانوا يأخذون على الكاثوليك، الذين

كانوا يطلقون عليهم اسم "البابويّين"، إلغاء الأمور الأساسيّة في الديانة المسيحيّة، باعتماد طقوس مسلّية، ومراتبيّة كنسيّة تجرّد الإنجيل من رسالته الحقيقيّة. وكانوا يرمون إلى استعادة بساطة الكنيسة ونقائها إبان بداية الحقبة المسيحية.

ثمة مثال على هذه النزعة، وهو إيثارهم وصيّة "ميخا"، التي نصادفها في العديد من عظاتهم، بل على جدران العديد من كنائس "انكلترا الجديدة".

"أيها الإنسان، لقد عرّفوك ما هو خير، وما يطلبه منك الإلـــه الأزليّ، وهو أن تمارس العدالة، وأن تحبّ الرحمة، وأن تسير في اتّضاعٍ مع إلهك".

ولا شيء سوى ذلك. فإنّ طهارة الله تفرض البساطة في كلّ ممارسة دينية.

لم يكن الطّهرانيّون ليهتمّوا البتّة بإمكانيّة وجود حياة بعد الموت. وما كان مثل هذا السؤال ليُطرح أبداً. كانت نعمة الله تُشكِّل جزءاً لا يتجزّأ من الحياة اليومية، وكانت تكفيهم.

إنَّ غاية الحياة المسيحيّة كانت "تجديد" روح كلّ فرد، بالحصول على النعمة الإلهية، وهي عطيّة يهبها الله على نحوٍ لا يخلو من التعسّف. ولكنهم كانوا على يقين من أنَّ هذه النعمة كانت من نصيب مَن يشتهونها. ومع ذلك، فقد كان من الممكن أن تحدث فجأة، في انخطاف سماوي. ولكن كان من الممكن أيضاً، أن تنمو ببطء طوال حياة الفرد بكاملها. فإن كانت تتجلّى فجأة، كان من حقّ الفرد الوثوق بأنه حصل عليها. بالمقابل، فإن كانت تتجلّى على نحو غير مثير، لم يكن لديه اليقين بأنه حصل عليها. وأيّاً كانت الحال، فالذين كان الله يمنّ عليهم بنعمته، كانوا هم شعبه المختار، فكانت اللعنة من نصيب الآخرين. يصف "بيري ميلر" هذه الظاهرة بالكلمات التالية:

"إنَّ النتيجة المباشرة كانت خلق طبقتين مختلفتين: القدّيسين المنظورين، وأولئك الذين لم يتحقّق بعدُ خلاصهم البيّن، وهذا أدنى ما يسعنا أن نقول بشأنهم"[3].

بالطبع كان الملايين من الطّهرانيّين يظنّون أنفسهم من الشعب المختار، دون أن يكونوه في حقيقة الأمر. على كلّ حال، كان على كلّ واحد أن يقدّم الدليل على أنه محطّ اختيار الله. من هنا كانت الأخلاق البالغة الصرامة لدى الطّهرانيّين، الذين كانوا يعتقدون أنَّ الشعب المختار لن يُخطئ. وإن كان أحدهم يُبدي ضعفاً أو انحرافاً في حياته الشخصية، فقد كان يُدرك جيرانه أنَّه ليس من فئة المختارين. ولكنهم على هذا الصعيد كانوا مخطئين، أقلّه في نظر اللاهوتيين الطُّهرانيّين، الذين كانوا يؤكّدون أمام دهشة العديد من المؤمنين، أنّه من الممكن لإنسان يحظى بنعمة الله، أن يرتكب شتّى أنواع الخطايا، دون أن يفقد النعمة.

كان السعي وراء النعمة يشكل أحد المواضيع الرئيسة، في عظات طُهرانيّي القرن السابع عشر، وقصائدهم. ولنا مثال على ذلك، ما قاله الشاعر "إدوارد تيلور" (Edward Taylor)، في قصيدة له تعود إلى سنة 1686:

"ربّي،
لتخترقْ أشعَّتُك الذهبيّة عينيّ، وتُودعْ فيهما نوراً سماويّاً،
كي تهبَ روحي نوراً مجيداً يمكّنني من الرؤية،
كي تشتعل النعمة فيّ"[4].

لما كان أهمّ شيء في الدين الطُّهراني، هو العلاقة السرية بين الفرد والله، كان كثيراً ما يحدث تباينٌ في الأفكار، يفضي إلى نشوء أديان جديدة كثيرة. فإن كانت إحدى الكنائس لا تنسجم مع خبرة

هذا أو ذاك، الدينية، حُقَّ له أن يبحث عن كنيسة أخرى، أو أن يؤسِّس كنيسةً جديدة.

من هنا كان تضخّم عدد الكنائس البروتستانيّة المختلفة، القائمة في الولايات المتحدة. ومع ذلك فإنَّ الحريّة الدينيّة، التي طالما تباهى بها الأميركيّون، لم تكن حقّاً قائمة في المستعمرات الطُهرانيّة في القرن السابع عشر. فخلال الثلاثين سنة الأولى، من نشوء المستعمرة، حدث انقسامان كبيران: أحدهما قام به "روجير وليامز" (Roger Williams)، الذي طُرد من "ماساشوستس"، والذي أسّس "رود أيلاند"، وثانيهما قامت به "آن هاتشيسون" (Anne Hutchison)، وكانت هي أيضاً قد نُفيَت. ولقد شنق الطُهرانيّون أربعة من "صاحبيّي" (Quakers) مستعمرة بوسطن، عقاباً لهم على هرطقتهم.

كانت حرية الفرد في علاقته الشخصية مع الله، قد بلغت حدّاً دفع الشاعرة "آن برادستريت" (Anne Bradstreet)، إلى مصارحة أبنائها سرّاً بأنّ الإلحاد كثيراً ما كان يجتذبها، فتقول:

"كثيراً ما شوَّشني الشيطان بشأن حقائق الكتاب المقدّس. وقد دفعني الإلحاد للتساؤل ما إذا كان الله موجوداً"[5].

إنَّ المؤرخين وعلماء الاجتماع، قد سبق لهم أن بيّنوا بجلاء أنَّ نشوء الرأسمالية وتطوّرها، تزامنا مع ظهور البروتستانيّة. فإنَّ الحقبة الرأسمالية هي الحقبة البروتستانيّة. ويسعنا أن نذكر من الدراسات، مؤلَّف "إرنست ترولتش" (Ernst Troeltsch): "بروتستانيّة وتقدّم"، عام 1912، ومؤلَّف "ماكس فيبر" (Max Weber): "الأخلاق البروتستانيّة وروح الرأسماليّة"، عام 1920، ومؤلَّف "ر. هـ. تاونيه" (R. H. Tawney): "الديانة وظهور الرأسماليّة"، عام 1926. جميع هؤلاء المؤلّفين يبيّنون أنّ الممارسات الأساسيّة في الرأسماليّة، التي تقوم على الاستثمار، أيْ على قرض الأموال واقتراضها، كانت محظورة من قبل الكنيسة

الكاثوليكيّة، وأنها لم تصبح متداولة إلاّ إبَّان الإصلاح البروتستانتي. وقبل ظهور البروتستانتيّة، وحدهم اليهود كانوا يستطيعون إقراض الأموال.

يؤكّد "تاونيه" أنّ فضائل الطُهرانيّين كانت تلك التي تسمح للرأسماليّة بالانطلاق. حسبنا قراءة الكتاب الذي وضعه "بنجمان فرانكلين"، عام 1732، بعنوان "تقويم ريتشارد الفقير" ( Poor Richard's Almanach)، كي نعرف قائمة هذه الفضائل. منها مثلاً:

"إنَّ الفلس الموفَّر، فلس مكتسب"، و"إنَّ النوم باكراً والاستيقاظ باكراً، يجعلان الإنسان سليماً، غنياً وحكيماً". ويعلن "تاونيه" قائلاً:

"إنَّ اعتراف الأخلاق الطُّهرانيّة بالفضائل الاقتصادية، في فترة كانت فيها تلك الفضائل أكثر ندرةً منها اليوم، دفع الفعاليّة الاقتصاديّة إلى الأمام"[6].

إنَّ العظات في "إنكلترا الجديدة"، تعكس قلق القساوسة من التنامي المثير لاهتمام المؤمنين بالرأسماليّة. وإنَّ الكنائس البروتستانيّة لا تملك القدرة على لجم النزعات المادية للرأسمالية، التي تهدّد الحياة الروحية لدى المؤمنين. فمنذ عام 1632، أي بعد نشوء مستعمرة "ماساشوستس" باثنتي عشرة سنة، سيطر الخوف من حلول عبادة المال محلّ عبادة الله. وكان اللاهوتيّون يذكرون كلمات يسوع بهذا الشأن.

"لا يستطيع أحدٌ أن يخدم سيّدين، فإمّا يكره الواحد ويحبّ الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا يمكنكم أن تخدموا الله والمال". (متى 24/6)

ويصف "ماكس فيبر" هذه الظاهرة على النحو التالي:

"بالنسبة إلى هذا الأمر، حسبُنا أن نلفت الانتباه إلى أنّ روح الرأسمالية (بالمعنى الذي نقصده هنا)، كان قائماً دون أدنى شك في البلد

الذي ولد فيه "بنجمان فرانكلين"، وهو الماساشوستس، وذلك قبل أن يتطوّر النظام الرأسمالي. فمنذ عام 1632، قامت شكاوى ضد الإفراط في السعي وراء الربح، وكان خاصاً بـــ "انكلترا الجديدة"، وقد تميّزت به دون سائر المناطق الأميركية"[7].

يدوّن القسيس "جون كاتن" (John Cotton) قائمة بشرور الجماعة الجديدة في بوسطن، يشدّد فيها على "ما يحلّ بالمدنيين من مظالم يمارسها بحقهم الدائنون والمرابون وأصحاب النزعة التجارية"[8]. وهو يهاجم الفعالية الأساسية في الرأسمالية: أي نظام القرض واستغلال الدائن للمدين. ويعلن "كاتن":

"إنَّه لواقع محزن وهو أنّ الأغنياء يلتهمون دائماً بظلمهم ممتلكات الفقراء"[9].

ولو كان "كاتن" قد عبّر عن مثل هذه الفكرة الماركسية، في الخمسينيات من القرن العشرين، لكان اضطرّ للدفاع عن نفسه أمام "لجنة الفعاليات المناهضة للولايات المتحدة"، التابعة للكونغرس الأميركي في واشنطن.

إنَّ الصراع بين الله والثراء، هو بالتحديد الذي يقوم في أساس الأزمة الروحية، لدى الأميركيين منذ أن كانوا. إذ كيف يسع شعب أن يدّعي تمثيل الله على الأرض، وهو، في الوقت نفسه، يجعل من عبادة المال ديانته الرئيسية؟ وفي الواقع، فإنَّ الطُّهرانيين أصبحوا في سنوات قليلة، القبيلة الأكثر ثراءً وقوة وإمبرياليّة في تاريخ العالم. وإنَّ البلدان الأخرى، إذ ترى تخمة الولايات المتحدة، لتتساءل بحقّ ما إذا كان الله لا يزال حاضراً في روح الأميركيين. ويبدو أنّ هؤلاء قد نسوا أنَّ يسوع قال إنَّه لصعبٌ جدّاً على الإنسان الغني أن يدخل ملكوت الله. (متى 24/19).

إزاء التزايد الهائل في ثراء الطهرانيّين، اضطرّ القساوسة لتقديم التنازلات. وعلى الرغم من أنّ السعي وراء المال أمرٌ مُدان، فسوف يدَّعون أنّ تحصيل الثروة باعتماد الفضائل الطُهرانيّة، مثل القناعة والعمل والانضباط والدراسات، هو مكافأة طبيعية يُقدِّمها الله نفسه، لهم. وبذلك يصبح امتلاك الأموال علامةً من علامات الرضى الإلهي. وينتشر التباهي بهذا الرضى. وكلّما كان الإنسان غنيّاً، كان محبوباً من الله. ويجد "بيري ميلر" تبريراً لثراء المسيحيين بالعبارات التالية:

"طالما أنّ الثروة هي مكافأة القداسة، فهي من صلب مخطّطات الله. وكلّما ازداد الإنسان ثراءً، ازدادت لديه الفرص لممارسة الخير، إن منحه الله الرغبة في ذلك. وبقدر ما كان الناس ينطوون على قلوب طيبة، استطاعوا أن يغتنوا دون أن يفقدوا أرواحهم"[10].

إنّ الجمع بين المال والنعمة الإلهيّة، أنتج الفكرة العصرية القائلة بأنَّ تحصيل المال وتكديسه يسعهما أن يضمَنا السعادة. هذا الوهم هو التحرّك الرئيس في الاقتصاد الرأسمالي. ونلحظ هنا مثلاً آخر للروابط التي توحِّد بين تاريخ الطُهرانيّة وتاريخ الرأسمالية.

ومع ذلك، فإنَّ ما يُثير اهتمامي على نحو خاصّ، ليس الوجه الاجتماعي للبروتستنتية، بقدر ما هو الوجه السيكولوجي، أي ما يحدث في فكر الطُهرانيّ وروحه. إنَّ هيمنة الوجدان الفردي في الشأن الديني، يُفسِّر عبادة الفردانيّة التي تُلاحَظ في جميع عهود التاريخ الأميركي.

يُقيم "تاونيه" علاقة بين فردانيّة الطُهرانيّين ورفض المجتمع في تحمّل مسؤوليّته حيال المعدَمين. فما من شأن إلاّ للفرد. وإن هو لم يتقن تحمّل مسؤوليّته الخاصة، فإنَّما ذلك خطأ منه، وهو يستحقّ البؤس الناجم عنه. يقول:

"إنَّ الفردانيّة في الديانة قادت على نحو خفي، ولكن ضمن سبب

منطقيّ، إلى أخلاقيّة فردانيّة. وهذه الأخلاقية الفردانيّة الأميركية، قادت بدورها إلى فقدان قيمة دلالة البنية الاجتماعية بالنسبة إلى الفرد[11]".

إنَّ الفردانيّة الأميركية تُعبِّر عن ذاتها أبلغ تعبير، في مؤلَّفات فلاسفة القرن التاسع عشر الصوريّين (Transcendentalists)، وخصوصاً مؤلَّفات "رالف والدو إمرسون" (Ralph Waldo Emerson) (1803– 1882) و"هنري دافيد تورو" (Henry David Thoreau) (1817– 1862). فللاثنين نقاط مشتركة كثيرة: فكلاهما نشأ في عائلة عريقة من بوسطن، وكلاهما دَرَس في جامعة هارفارد (Harvard)، وكلاهما يتبنّى الفكر التحرّري ويقاوم نظام الرِّقّ.

إلاّ أنَّ بينهما علامات فارقة كثيرة: فإنَّ "إمرسون" ينشر كثيراً في الولايات المتحدة وبريطانيا، ويلقي محاضرات في ضفّتي الأطلنطي، وهو صديق لكتّاب بريطانيّين مشهورين، مثل" توماس كارلايل" ( Thomas Carlyle)، ويقطن بيتاً في مدينة كونكورد بالقرب من بوسطن. بالمقابل، فإنَّ "تورو" يعيش حياةً متقشِّفةً. وقد أمضى عامين في كوخ منعزل بجوار "والدن بوند"، في أرض يملكها "إمرسون". كما أنَّه يقوم بجميع أعمال الخدمة في بيت "إمرسون" في كونكورد. صحيح أنه ينشر ويلقي محاضرات، ولكن بنسبة أدنى بكثير من "إمرسون". وهو يبذل جهداً لا بأس به لإبعاد المعجبين به. وهو يقوم برحلات عديدة يُدوِّنها في كتابات، منها رحلة إلى كيبك، دوَّنها في كتاب بعنوان (أميركي في كندا).

إنَّ فردانيّة "إمرسون" على الصعيد الديني، تنعكس خصوصاً في الخطاب الذي ألقاه في كليّة اللاهوت، في هارفارد، عام 1838. وقد أثارت كلماته فضيحةً بلغت حدّاً، حال، فيما بعد، دون عودته إلى هارفارد مدّة ثلاثين عاماً. وقد بلغ من الهرطقة ما جعله يدمج بين هويّة الفرد وهويّة الله، فقال:

"كلّما كان الإنسان مستقيماً في قلبه، كان هو الله"[12].

ويتبنى "إمرسون" تقسيم العالَم إلى شطرين، هما المختارون وغير المختارين، وهو تقسيم بالغ المكانة في نظر الطهرانيّين. وهو يعني بذلك الثنائية بين الصالحين والأشرار. فإمّا يكون الإنسان صالحاً، وإمّا يكون شرّيراً. فيقول:

"إنَّ الصالحين يبحثون عن الصالحين بدافع التجانس، مثلما أنّ الأشرار يبحثون عن الأشرار. وهكذا... فإنَّ الأرواح تمضي إلى السماء أو إلى الجحيم، وفق إراداتهم الخاصة"[13].

وثمّة فكرة مماثلة في القرن العشرين، تدَّعي أنَّ الأغنياء يختارون أن يكونوا أغنياء، والفقراء يختارون أن يكونوا فقراء.

ويدّعي "إمرسون" أن يسوع يشاطره فكرته بأنّ الله يتجلّى في كل إنسان، فيقول:

"إنَّ يسوع رأى أنّ الله يتجسّد في الإنسان، وأنَّه يمتلك العالم دائماً على نحو متجدّد".

وقد أعلن في لحظة انفعالٍ عارم:

"أنا إلهيّ. إنَّ الله يتصرّف ويتكلّم فيّ. وإن شئتَ أن ترى الله، فانظر إليَّ، أو انظر إلى ذاتك. عندها تفكر، مثلما أنا أفكّر الآن"[14].

بالطبع، مثل هذا القول خروج على العقيدة في نظر المسيحيين ذوي الفكر التقليدي. وهو في الوقت نفسه، احتفاء بالفردانيّة إلى المدى الأقصى: إنَّ كل إنسان - أقول "إنسان"، ولا أقول "رجل وامرأة"، لأنَّ الكتّاب آنذاك يتكلّمون هكذا - يستطيع أن يحتوي الله، ويستطيع أن يُقرِّر بنفسه ما هو حقّ وصالح، بل هو يستطيع أن يحلَّ محلَّ يسوع في مخطَّطه الخلاصي للكون.

يقتضي "إمرسون" من الإنسان ألاّ يصغي إلاّ للإله الموجود فيه، فيقول:

"أطعْ ذاتَك. إنَّ ما يُظهِر الله في ذاتي، يزيدني قوّة. وما يُظهِر أنّ الله موجودٌ خارج ذاتي، يُحوِّلني إلى مجرَّد ثؤلول ودمَّل"[15].

وإنَّه لَيتوقَّع، على نحو ما، السأم الرّوحي في الولايات المتحدة، في أواخر الألفية الثانية. يقول:

"هل من كارثة تحلّ بأُمّة أسوأ من فقدانها ديانتها؟ فعندها، كلُّ شيءٍ يموت"[16].

إنَّ بيان "إمرسون" حول "كلية اللاهوت"، يشيد بالفردانيّة في إطار يمسّ أعماق الأميركيين. فهو يُعلن أنَّ بمقدور كلّ إنسان أن يعرف الله، تماماً كما عرفه المسيح. قد صُدِمَ مواطنوه بما تنطوي عليه هذه الفكرة من كفر.

ولكنهم، في الوقت نفسه، يستسلمون استسلاماً تاماً لفردانيّة لا حدود لها، في بحثهم عن المال.

يعود "إمرسون"، في محاولة أسماها "الثقة الذاتية"، عام 1841، ليؤكِّد ثقته بالفرد بوصفه القاضي الأعلى لعالَمه وحياته الشخصية. فما يفكِّر فيه الإنسان يُشكّل الحقيقةَ الوحيدة القَيِّمة:

"أن تؤمن بفكرتك الخاصّة، وأن تؤمن بأنَّ ما هو حقٌّ في نظرك وفي أعماق قلبك، هو حقٌّ بالنسبة إلى جميع الناس – تلك هي العبقرية"[17].

وفي الخلوة يستطيع الإنسان أن يتقن الإصغاء إلى ضميره الذاتيّ وحكمته الذاتية. وإنّ اكتمال الحياة ليفرض على الإنسان أن يتمرَّد على التقاليد، بل أن يكون غريبَ الأطوار، و إنْ هو أصغى إلى ما هو فريد فيه، يزداد أصالةً. وإنَّ هذه الأصالة لتفترض الشجاعة. ويعلن "إمرسون":

"مَن أراد أن يكون إنساناً، توجَّبَ عليه أن يتمرَّد على التقاليد.

فليس ثمّة ما هو أقدس من سلامة فكرنا الشخصي... ليس هناك من قانون يكتسب قدسيّة قانون طبيعتي الخاصة"[18].

يجب على الفرد أن يثق بغريزته الذاتية في كل شيء. وإنه لأمر طبيعي أن تتطور غريزته. ستبدو أفعاله غير منطقية. إلا أنّ مثل هذا الأمر شيء حسن، وفق ما يرى "إمرسون"، مُبيّناً "أنّ التماثل الغبي إنّما هو وليد عقول صغيرة"[19]. إنه التمرّد المطلق على طاعة المؤمنين للكنيسة. فما من كاهن يحقّ له أن يملي على المؤمنين، ما هو صالح أو سيئ. فهذه المهمة تعود للفرد على نحو دائم.

ينتمي "إمرسون" إلى تقليد القساوسة الطهرانيّين الذين يحتقرون المال. وهو يرى أنّ التملّك المادي يثقل الروح: "إنّ رجلاً مثقّفاً يخجل من ممتلكاته، يخجل ممّا يملك، وذلك بدافع من احترام جديد لكيانه"[20].

نرى هنا مثالاً على المعارضة الفلسفيّة للمادية، وهي معارضة قامت منذ بدء استيطان ولاية ماساشوستس، وتنسحب حتى على مثاليّة هيبّيّي عصرنا وثوريّيه ومتمرّديه. إن أزمة الأميركيين الروحية تعود إلى أن أصواتهم قد خنقها ضجيج الآلة الرأسمالية الصاخب.

كانت الولايات المتحدة التي عرفها "إمرسون" بلداً فتيّاً. وكان يرجو أن يصبح بلده مختلفاً عن بلدان أوروبا العتيقة، بل أفضل منها. كان يرجو فلسفة أميركيّة، وأدباً أمريكياً، وفنّاً أمريكيّاً صرفاً. وكان هو من اكتشف "والت ويثمان"، وهو أول شاعر حديث حقّاً في هذه الحضارة.

وهو يطنب في مديح "ويثمان"، الأمر الذي جلب له احتقار معارفه، الذين صُدموا بشخصية "ويثمان" الغريبة وشعره المجدّد.

وقد جسّد "إمرسون" أمله في بلده الجديد، في أمله في الفرد الأميركي على نحو خاص، الذي سوف يبدع، باعتماده على ذاته،

حضارةً جديدةً تحمل الحلول لمشاكل الحضارة الأوروبيّة القديمة. وسيقدَّر لعرق جديد من البشر أن يحيا في أمريكا، وهو عرق سيكون متفوّقاً، لا لشيء إلا لأنّ كلّ فرد فيه سيعرف أنه الله!

إنّ خير من يمثّل فكر "إمرسون"، هو "هنري دافيد تورو" (Henry David Thoreau). فهو يبحث عن الحقيقة في عزلة الغابة. وهو يقول في روايته "والدن" أو "حياة في الغابات":

"مضيت إلى الأحراش، لأني كنت أريد أن أحيا دونما تسرّع، وأن أواجه فقط الوقائع الجوهرية في الحياة، وأن أرى إن كان بوسعي أن أتعلّم ما لديها ممّا يجب أن تعلّمني إيّاه، كي لا أكتشف لحظة موتي أنني أنفقت العمر باطلاً. [...].

"كنت أريد أن أحيا بكثافة، وأن أتذوّق لبّ الحياة، أن أحيا بشجاعة وتقشّف تام، كي ألغي كلّ ما ليس بالحياة، وأن أحيل الحياة إلى أدنى مقتضياتها، بل إلى شروطها الدنيا"[21].

يرفض "تورو" رفضاً قاطعاً مادّيّة مواطنيه. فهو يعتقد، مثله مثل "إمرسون" وقساوسة القرن السابع عشر الطهرانيّين، أنّ الإنسان يصبح عبداً لمتلكاته. وهو يشيد بالفقر، لأنه في الواقع مصدر الثراء الروحي: "كلّما كان الإنسان بسيطاً في حياته، بدت قوانين الكون أقلّ تعقيداً. فالوحدة لن تكون وحدة، والفقر لن يكون فقراً، والضعف لن يكون ضعفاً"[22].

إن رفض "تورو" للمادية وللامتثالية، جعل منه بطل جيلي المُعارض. وفي الواقع، فهو، في جملة الفلاسفة الأميركيين القدامى، الفيلسوف الأمريكي السابق الوحيد، الذي اعترف به معظم هيبيّي الستينيّات. فإنّ الجانب الفكري لديه، الذي اجتذب خصوصاً معارضي حرب فيتنام، هو فلسفته بشأن المقاومة السلبيّة لسياسات الحكم غير الأخلاقيّة. فإنّ محاولته "مقاومة الحكم المدني" (عام 1849)، التي تحمل أيضاً عنوان

"العصيان المدني"، قد ألهمت كلاً من المهاتما "غاندي" و"مارتان لوثر كنج". ويجوز لنا، بمعنى ما، أن نُسدي الشكر "لتورو"، لتفكيكه الإمبراطورية البريطانية، لأنّ غاندي تعلّم منه أسلوب العصيان المدني، الذي سيفضي إلى إزالة الحضور البريطاني في الهند، وفي ما بعد، في سائر المستعمرات البريطانية على نطاق العالم.

كتب "تورو" محاولته حول العصيان المدني، بعد أن قضى فترة في سجن "كونكورد"، حيث اعتُقل، لأنه رفض أن يدفع الضريبة، احتجاجاً منه على الحرب ضد المكسيك وعلى نظام الرقّ.

وهو يخشى أن تصبح الأراضي الجديدة، التي استولت عليها الولايات المتحدة، خلال حربها العدوانية على المكسيك، ولايات يُسمَح فيها بنظام الرقّ. إنّ فردانية "تورو" متطرّفة، فهو يرى أنّ إنساناً يُقيم في بلد ظالم، لا يسعه أن يتمتّع براحة الضمير، إن ظلّ حرّاً خارج السجن. يقول: "في ظلّ حكم يعتقل الناس ظلماً، خير الأماكن بالنسبة إلى إنسان مستقيم، هو السجن أيضاً"[23]. وهذا هو ما كان جوابه لصديقه "إمرسون"، يوم زاره في السجن وسأله: "يا هنري ما الذي تفعله هنا؟"، إذ أجابه: "وأنت، يا رالف، ما الذي تفعله خارج السجن؟".

إنّ "تورو" هو أول فيلسوف أميركي يطالب بثورة ضد الحكم الأميركي، بسبب أعماله الظالمة. وهو بذلك رائد المناضلين في الحركة المناوئة للحرب، وفي حركة القوة السوداء خلال الستينيّات. وهو يؤكّد دون لَبس: "عندما يكون سدس سكان أمة تدّعي أنها ملجأ الحرية، عبيداً، ويكون بلد برمّته مجتاحاً ومحتلاً من قبل جيش أجنبي، وخاضعاً للأحكام العرفية، عندها أرى أنه آن الأوان ليتمرّد الرجال الشرفاء ويقوموا بثورة. والذي يجعل من هذا الواجب أمراً شديد الإلحاح، هو أنّ هذا البلد المجتاح ليس ببلدنا، وأنّ جيش الاجتياح هو جيشنا"[24].

عندما يُزَجّ "تورو" في السجن، يشعر أنه حرٌ أكثر من أي وقت مضى، وأنه أيضاً يتمتّع بحرية تفوق حرية مواطنيه المتواجدين خارج السجن. إنه يعرف أنّ الحرية الحقيقية إنما هي حرية الفكر، وأنّ واقع اعتقال جسد في قفص، لا يفعل سوى التأكيد على استقلاله الفكري. في مثل هذه اللحظة يكتشف ما سيقوله اليهود في معتقل أوشفيتز بعد قرن: "أفكارنا حرة". وقد أفضى "جان بول سارتر" إلى النتيجة ذاتها خلال الاحتلال النازي لباريس. فهو يقول إنه لم يكن يوماً حرّاً، مثلما كانه في ذاك الوقت، لأنّ غياب حريّته الجسديّة أبرزت حريّته الروحيّة. يقول "تورو": "لقد رأيت أنّه إن كان هناك جدار من حجر بيني وبين سكان مدينتي، فثمّة جدار آخر يزداد اختراقه أو تحطيمه صعوبة، كي يتسنّى لهم أن يكونوا أحراراً بنسبة حريتي. رأيت أنّ الدولة قد باتت نصف غبيّة، وفقدت النزر الباقي من الاحترام، الذي كنت أكنّه لها. لقد باتت تثير لديّ الإشفاق"[25].

يرى "تورو" أنّ الفرد أعظم شأناً من الدولة، وأنّ مبرّر الدولة الوحيد، هو حماية الفرد وخدمته.

هنا تصبح فردانية التقليد الطهراني، فلسفة سياسيّة ستظلّ قائمة في الوجدان الأميركي حتى يومنا هذا. و يصرّح "تورو": "لن تقوم يوماً دولة حرّة ومستنيرة حقاً، ما لم تعلن أنّ الفرد هو قيمة أعلى شاناً ومستقلّة، منه تستمدّ الدولة كلّ قوّتها وكلّ سلطتها، وتتعامل معه وفق هذا المنطق"[26].

إنَّ أحد الأسباب التي دفعتني للهرب من الولايات المتحدة، كان رفضي دفع الضرائب للحكومة الأميركية. فإنَّ نصف ميزانية الحكومة المركزية، مخصّص لوزارة الدفاع (الدفاع المزعوم... وقد كنت أتساءل: الدفاع ضد مَنْ؟ الفلاحين الفيتناميين؟ الصوماليين؟). إنَّ كلَّ ساكن في الولايات المتحدة يدفع سنوياً 1150 دولاراً وسطياً، لميزانية وزارة

الدفاع، التي بلغت عام 1992، (286.6) مليار دولار. ولا يحقّ لداعية سلام أن يدفع فلساً واحداً للمناورات الحربيّة، لأمّة هي أكثر الأمم إمبرياليةً في التاريخ. إنَّ هذا الموقف الذي تبنّيته، كان نتيجة قراءاتي "لتورو" وتقليد العصيان المدني الذي أسّسه.

ولأني عشت دائماً في المهجر، استطعت أن أتجنَّب دفع الضرائب الأميركية. ومع ذلك، فقد ألفت عادةً غريبةً، وهي أن أملأ تصريحاتي الأميركية بشأن مدخولي السنوي، أقلُه كي أُبرهن على أنّي لا أدين بشيء لواشنطن. وقد حقّقَت ممارستي هذه لوطنيتي المعكوسة، نجاحاً تاماً طوال عشرين عاماً. وفي عام 1990، أرسل لي مكتب الدخل الوطني، رسالة يبلّغني فيها ضرورة دفع ألف دولار، دون تقديم أي تفسير. فاتصلت هاتفياً بواشنطن لأبيِّن لهم أنّ الأمر لا يعدو كونه خطأ، نظراً إلى أني كنت دائماً أدفع ضريبة الغرباء في كندا، وهي تفوق ما كان طُلب مني دفعه للولايات المتحدة. فاقتنع مخاطبي بمنطقي.

وسألته إنْ كان يستطيع نقل المعلومة إلى حاسوبه، كي لا أتلقّى بعد اليوم طلباً آخر. وللأسف، كان جوابه سلبياً. فإنَّه لا يحقّ للكائن البشري أن يصدر أمراً إلى آلة. وظللت أتلقّى تبليغاً تلو تبليغ بشأن الضرائب.

وفجأةً خطرت ببالي فكرة. فكتبت إلى مكتب الدّخْل الوطني، كي أبلّغه أنّ "روبير دول" قد غادر مدينة شيكوتيمي، وأنَّه هاجر إلى بولندا على العنوان التالي: 321، شارع غوفنو Gowno، فرصوفيا. وقد نجحت خطّتي. فلم أعد أتلقّى أيّ تبليغ، وبات يحقّ لموظَّفي البريد في فرصوفيا، أن يضحكوا بملء أشداقهم مرَّةً كلّ شهر، لأنّ العنوان الذي كتبتُه يعني: 321، شارع الخ...!

❖ ❖ ❖

تبعاً لفرضيتي، فإنَّ الطابع القدسي الذي تتّسم به العلاقة

المباشرة بين الفرد وإلهه، كما نجدها لدى طهرانيّي القرن السابع عشر، يُشكِّل نواة العبادة الأميركية للفردانيّة والحريات الفردية. فما هي إذن حال هذه الفردانيّة في القرن العشرين؟

لو طُلِبَ إلى أحد الأمريكيّين العاديّين، أن يُحدّد الدور الرئيس لبلده في تاريخ العالم، لكان أجاب دون شكّ أنَّه يقوم على ضمان الحرّيّة، خصوصاً الحريّة الفرديّة، وعلى الأخصّ حرّيّة التعبير، ومثلها حرّيّة الديانة. إنَّ هذا الإعلان عن الإيمان برسالة، ترمي إلى حماية الحرّيّة في كلّ مكان في العالَم، يُقدِّم الدليل على أوّل درس يتلقّاه الطلاب الأميركيّون في المدرسة، ويردِّدونه كلَّ صباح، إذ يتلون قَسَمَ الولاء. إنَّهم يُعلِّمون هؤلاء الأطفال أنَّ الولايات المتحدة هي أمةٌ تضمن "الحرّيّة والعدالة للجميع".

هذه الفكرة، تجترُها وسائل الإعلام، وبجميع الطرُق الممكنة. فإن شاهدَ أحدُ الأميركيّين، مثلاً، فيلم (فيلادلفيا)، فإنه يخرج من دار السينما مقتنعاً مجدَّداً، أنَّ الحكومة الأميركية تضمن الحرية والعدالة لجميع الأميركيين، بمن فيهم المصابون بمرض ضعف المناعة "الإيدز"، وأنَّ الجنود الأميركيين، عندما يخوضون الحروب، سواء في فييتنام أو العراق أو الصومال أو أيّ مكان آخر، يعتقدون صادقين أنَّهم يُغامرون بحياتهم، بل أنَّهم يُدمِّرون حياة الآخرين، لغاية واحدة هي: ضمان حرية المساكين (في حين أنَّ هؤلاء لا يدرون أنَّ حياتهم مهدَّدة). تشهد بذلك رسالة كتبها جنديٌّ شاب من ميدوست (Midwest) لأهله، عام 1993، قبل أن يُقتَل: "أُحبُّ وطني وكل ما يُمثِّله". لو كان جنديٌّ روسيٌّ صرَّح بمثل ذلك، لكان الأميركيون قالوا عنه إنَّه ضحية غسيل دماغ. ويجوز لنا أن نتساءل كيف لأميركيّ لم يكن يوماً قد شاهد بلده من الخارج، إلا في المعارك الدائرة في الصومال، كيف له أن يعرف ما الذي يمثّله بلده؟

في شهر حزيران من عام 1993، كان الجنرال "كولن باول" يرأس الاحتفال بتسليم شهادات التخرّج في جامعة هارفارد (Harvard)، وكان يُصرِّح بصفاقة أنَّه أمضى خمساً وثلاثين سنةً، يُدافع خلالها عن الحريات الفرديّة في كلِّ مكان في العالم. وكان الجميع يصفّقون له، باستثناء قلَّة قليلة...

عام 1968، كنت في الثامنة عشرة، عندما أُصبتُ بأول خيبة أمل، في ما يتعلَّق بواقع حرية التعبير في الولايات المتحدة. كنت يومها طالباً في أكاديمية "فيليبس إكستر" (The Phillips Exeter Academy)، في جنوب نيو هامبشاير، وهي الجامعة التي خَرَّجَت، في ما خَرَّجَت، بعضاً من آل "روكفيلر" و"جون إرفينج" (John Irving). كان طلاب جامعة نيو هامبشاير، الواقعة على بعد عشرة كيلومترات من مدرستنا، قد دَعَوا شيوعيَّين أميركيَّين لإلقاء محاضرة في المدينة الجامعية. وكانت صحيفة "مانشتستر يونيون ليدر" ( The Manchester Union Leader)، وهي أكثر صحف الولاية رجعيّةً، قد ارتجَّت خوفاً إزاء احتمال أخذ الطلاب بفلسفة لينين، إذا ما استمعوا إلى محاضِرين "مخرِّبين". فاضطرّت الجامعة لإلغاء زيارتهما. فتعاونتُ مع بعض الأصدقاء، ودعوتُ هذين المحاضِرَيْن الشيوعيَّين إلى مدرستنا، وحجزنا باصات لنقل طلاب جامعة هامبشاير. وفي حدود علمي، لم يصبح أحدٌ منهم شيوعيّاً، من جرّاء هذا الاختبار.

بعد ذلك بأشهر قليلة، بدأت دراستي في جامعة هارفارد. فدُعيتُ خلال الأسبوع الأول لمقابلة العميد، فتساءلتُ: "أيُّ شيء سيّئ تُراني فعلت؟". فأخبرني العميد أنَّ رجلَين من مكتب التحقيقات الفيدرالية يُريدان التحدُّث إليّ.

زارني عميلان كانا يريدان أن أُدلي بشهادتي ضدّ المحاضِرَين الشيوعيَّين، اللذين كانا قد تحدّثا في المدرسة. فسألتُ: "لماذا؟". كان

جوابهما: "لأنّهما دعوا لتدمير الحكومة الأميركية بطُرُق عنيفة". وكنت على يقين من أنَّ مكتب التحقيقات الفيدرالية يكذب. وهكذا تعلَّمتُ أنَّ حرية التعبير التي طالما يفاخر بها مواطنيَّ الأميركيّون، إنَّما هي حِكر على مَن يُعبِّرون عن آراء الغالبية.

بعد ذلك بعامين، زارني من جديد رجالٌ من مكتب التحقيقات الفيدراليّة، لأني كنتُ قد شاركتُ في تجمُّع احتجاج ضدّ الحرب في فييتنام، في شارع أرلنغتون في بوسطن، وكنت في عداد الشبان الذين أحرقوا بطاقة التجنيد في الجيش الأميركي، أو أعادوها إلى القسّيس.

بدأتُ إذن باكراً جدّاً أشكّ في حرية التعبير في بلدي. وقد رسَّخَت لديَّ دراستي للماركسية، الاقتناع بأنّ الحرية التي يتحدَّث عنها مواطنيَّ، تقوم خصوصاً على حرية الأغنياء في استغلال الفقراء. وقد قرأت، منذ مدّة وجيزة، في مجلة "سبير تشانغ" (Spare Chang) - عدد أيار 1995، وهي مجلّة مشرَّدي بوسطن، هذا التعليق الثاقب:

"إنَّ الحسّ السليم يقول لنا إنَّ حرية التعبير لا تعني أيَّ شيء، بالنسبة إلى الذين حُرِموا العمل واللقمة والسكن".

وخلال حرب فييتنام، كان أصحاب الملايين هم مَن حصدوا أعظم الأرباح، بفضل العقود التي أبرموها مع وزارة الدفاع. فإنَّ أصحاب مصانع الدوكيميكال (Dow Chemical)، الذين يُصنِّعون النابالم، كانوا يزدادون ثراءً، كلّما كان الجنود الأميركيّون يُشوِّهون ويقتلون بمنتوجاتهم الفلاحين الفييتناميّين.

قد يبدو كابوس النابالم من شؤون العالم القديم، إلاّ أنَّ التاريخ الأميركي الحقيقي قد انتهى في فكري عام 1968، لحظة غادرتُ بلدي. وفي الراهن من الأحداث، كثيراً ما تُثار

مسألة الأسلحة. إنَّ صنّاع الأسلحة الأثرياء هم بالطبع الذين يُضاعفون ثرواتهم، في كلّ مرّة يبيعون فيها مسدَّساً، والشاري هو، بطبيعة الحال، دونهم ثراءً بما لا يُقاس.

فحسبي هذه الإحصائيات: هناك مئتا مليون سلاح ناري، في حوزة الناس في الولايات المتحدة، وثمّة (36.000) إنسان يُقتَلون فيها كلّ عام، بالأسلحة النارية. وإنَّ عدد مخازن بيع الأسلحة النارية في الولايات المتحدة، يفوق عدد مطاعم مكدونالد، إحدى وثلاثين مرّة، بحسب عضو مجلس الشيوخ "لويد بينتسن" (Loyd Bentsen). ثم إنَّ "حظ" شاب زنجي في لوس أنجيلس، في تعرُّضه للقتل، يفوق حظَّه في دخول الجامعة. وهناك مَن يقول إنَّ البيض يواصلون بيع الأسلحة، لا لشيء إلاّ لأنهم يريدون للزنوج أن يقتَتِلوا.

إنَّ حرية التعبير التي يفاخر بها الأميركيون، إنما هي حرية الطبقة المسيطرة. فإنَّها هي التي تقود آراء المجتمع، وتمتلك الصحف وشبكات التلفزة. والفقراء، في معظمهم، يرفضون حتى التصويت. فثمة 37٪ من الأميركيين الذين يحقّ لهم التصويت، قد صوَّتوا بالفعل إبَّان انتخابات تشرين الثاني عام 1994. ويظنّ الحزب الجمهوري أنَّه انتصر، في حين أنَّه لم ينلْ إلاّ أصوات 20٪ من السكان. وإنَّه لمن الواضح إذن أنَّ الحكومة الأميركية لا تُمثِّل الشعب الأميركي.

على كلٍّ حال، فثمة فقراء كثيرون لا يعرفون القراءة. وثلث الأميركيّين هم في حكم الأميّين (وهم، كما يُسمَّون، أُميّون وظيفيّاً). ويجوز الاستنتاج بأنَّ الأُميّين يُمثّلون نسبةً هامَّةً ممّن لا يُصوِّتون. وحتى لو أدلوا بأصواتهم، فكيف لهم أن يعرفوا أنَّ اليسار يُمثّل مصالحهم أكثر من اليمين؟

لقد أمضيتُ خمسة عشر عاماً، من الاثنين والعشرين التي

قضيتُها في الولايات المتحدة، بالقرب من "مُدن الصفيح" التي يقطنها الزنوج، بل في قلبها، أولاً في واشنطن، العاصمة الفيدرالية، ثمّ بعد ذلك في كمبريدج وماساشوستس. وقد تبيَّن لي في سنٍّ مبكّرة، أنَّ مفهوم الحرية كان يُثير لدى الزنوج رؤيا أخروية. ذلك هو، في الغالب، معنى ترانيمهم الدينية. من ذلك مثلاً ما يُقرأ على شاهدة قبر ابن "مارتن لوثر كينغ":

"أخيراً حرّ، أخيراً حرّ! إنّني، بفضلك، أيها الربّ الكلّي القدرة، قد أصبحتُ أخيراً حرًّا".

على كلّ حال، فإنَّ الفردانية الأميركية لا تقتصر على مسألة الحريات الفردية: إنَّها تتغلغل في جميع جوانب النظام الاجتماعي والاقتصادي. وهي تُفسِّر ما في السلوك الأميركي من نزعة إلى التنافس والعدوان. ففي هذا "الخليط العجيب" (Melting Pot)، حيث تتلاشى تقاليد مختلف المجموعات الإثنية، ليس ثمّة سوى قاعدة واحدة تسود، إنَّها قاعدة السعي وراء المال وتكديسه. وتتنامى الرغبة في المال مع هيمنة الدعاية التي تُثير لدى الأميركيّين، ولا سيما لدى أكثرهم فقراً، الرغبة في امتلاك شتى الأشياء التي لا يحتاجون إليها حقّاً. وإنَّهم، إذ يشعرون بالإحباط، لأنهم لا يملكون ما يُمكِّنهم من الحصول على الأشياء التي تشيد بها وسائل الدعاية، يلجؤون إلى الجريمة كي يحصلوا على المال الضروري. ويعيش البرجوازيّون في إيقاع رتيب دائم، ما بين وسائط النقل والعمل والسرير (Metro-Boulot-Dodo)، يزداد خطورةً مع ازدياد النزعة الإجراميّة. والأميركيّون يبنون اليوم من السجون أكثر ممّا يبنون من المدارس. فثمّة مليون ونصف أميركي يقبعون حالياً في السجون.

إنَّ استحالة الحصول على المال الذي يحلم به الأميركيّون، والتهديد الدائم بالجريمة العنيفة، يولِّدان اليوم ضغطاً نفسياً لا

يُطاق. ولا بدَّ من أنْ نُضيف إليه ضغط التنافس وضغط السعي وراء النجاح، الذي سنخصصُه بفصل لاحق.

وإنَّ مواجهة مثل هذا الاحتقان من الضغوط المختلفة، تتطلَّب قدرات نفسيّةً خارقةً. وأنا شخصيّاً لا أعرف إنساناً واحداً في الولايات المتحدة، يملك مثل تلك القدرات. وفي الواقع، فإنَّ جميع أصدقائي الأميركيّين دون استثناء، قد شعروا، في لحظة أو في أخرى، بالحاجة إلى مُراجعة مُحلِّل نفسي أو طبيب نفسيّ أو مُرشد، أو إلى حشد من هؤلاء المختصّين، طوال فترات، كثيراً ما غطَّت قسماً كبيراً من حياتهم. وتقول إحصائيّات حديثة إنَّ 8٪ من الأميركيّين يستخدمون دواء بروزاك (Prozac)، وهو أكثر المنشِّطات شهرةً.

تلك هي حال الفردانيّة في الولايات المتّحدة، في أواخر القرن العشرين. ثمّة أمرٌ ثابت، وهو أنَّ الفردانيّة تعود إلى التقليد الطُهرانيّ لدى الفرد، الذي يواجه وحيداً، الله ومصيرَه.

# مراجع الفصل الأول

[1] "بيري ميلر": "فكر انكلترا الجديدة: القرن السابع عشر"، بوسطن، دار نشر بيكن، 1961 – ص 297.

[2] ر. هـــ. تاونيه R. H. Tawney: (الديانة وظهور الرأسمالية) نيويورك، منتور Mentor، عام 1954، ص 189.

[3] بيري ميلر، المرجع نفسه، ص 458

[4] ناين بيم Nine Baym: (مختارات من الأدب الأميركي)، نيويورك، و. و. نـــورتن Norton، عام 1989، ص92.

[5] المرجع نفسه، ص 71.

[6] ر. هـــ. تاونيه R. H. Tawney: المرجع نفسه، ص 210.

[7] ماكس فيبر Max Weber: (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)، باريس، بلـــون Plon، ص 54.

[8] بيري ميلر، المرجع السابق، ص 472.

[9] المرجع ذاته، ص 473.

[10] المرجع ذاته، ص 481.

[11] ر. هـــ. تاونيه R. H. Tawney: المرجع ذاته، ص 211

[12] ناين بيم Nine Baym: (مختارات من الأدب الأميركي) نيويورك، و.و. نورتن Norton عام 1989، ص426.

[13] المرجع السابق: ص 426.

[14] المرجع السابق: ص 428.

[15] المرجع السابق: ص 429.

[16] المرجع السابق: ص 434.

[17] المرجع السابق: ص 437.

[18] المرجع السابق: ص 439.

[19] المرجع السابق: ص 453.

[20] المرجع السابق: ص 453.

[21] المرجع السابق: ص 775–776.

[22] المرجع السابق: ص 820.

[23] المرجع السابق: ص 720.

[24] المرجع السابق: ص 715–716.

[25] المرجع السابق: ص 722–723.

[26] المرجع السابق: ص 728.

# الفصل الثاني

# المختارون وغير المختارين

**"سأكون إلهكم"**
**"وستكونون شعبي"**
**(سفر اللاويين** 12/26)

**كان طُهرانيّو القرن السابع عشر، يفكّرون ويقولون إنَّهم شعب الله المختار، الأُمّة التي يدفق عليها الله نعمتَه الإلهيّة، والتي اختارها كي تصبح قدوةً لسائر البلدان في العالَم. فكان هذا الشعب قد حلّ محلّ إسرائيل، في الدور الذي كان الله قد خصَّه به في العهد القديم. وما يزال هذا الإيمان قائماً حتى اليوم في فكر الأميركيين، بكلّ قوّته الأصليّة. وستكون بوسطن أورشليم الجديدة. وفي كلِّ عامٍ، تجلب وزارة الخارجيّة آلافَ الأجانب، ولاسيَّما من البلدان المتخلِّفة، لزيارة الولايات المتحدة، كي يُتاح لهم أن يُعجبوا بالمؤسسات الأميركيّة، ويتبنّوها كنماذج لبلدانهم المختلفة. وليس ثمَّة، في الفكر الأميركي، أيُّ رابط على الإطلاق بين مؤسَّسات البلد السياسيّة، وهي في نظرهم من منشأ شبه إلهي، والمشاكل الاجتماعية الهائلة، التي تصيب البلدَ كلَّه في الصميم.**

**كان الطُهرانيّون يريدون "لإنكلترة الجديدة"، أن تكون "من الكمال بحيث يستطيع العالَم أن يرى فيها نموذجاً لما ستكون عليه الأرض كلُّها، في الأزمنة المجيدة المنتَظَرة (...)، وبحيث يتسنّى لنا، بعون الله، أن نبلغ ما لم تبلغه الشعوب الأخرى حتى الآن"[1].**

ويكتب "بيتر بلكلي" (Peter Bulkeley) بشأن سكّان "إنكلترا الجديدة":

"مثل مدينةٍ فوقَ هضبةٍ، تراها الأرضُ كلُّها، فإنَّ عيون العالَم مركَّزةٌ علينا، لأنّنا أعلنّا أننا شعبٌ يقوم بينه وبين الله ميثاق. وإنَّ دورنا لَيَدْعُونا لأن نسلكَ سلوكاً من شأنه أن يجعل جميع الأُمم تقول: هذا الشعب وحده، شعب حكيم، مقدَّس ومُبارَك"[2].

وإنَّ "وليم ستاكتن" (William Stoughton)، لَيعبِّر بوضوح كبير عن الروابط المباشرة القائمة بين الطُهرانيّين والله، فيقول:

"إنَّ وعودَ الله وتوقُّعاتِه قد حدَّدت "إنكلترا الجديدة"، وجميع الناس الساكنين بيننا، كي يكونوا فوق جميع أُمم العالَم وشعوبه"[3].

تحتوي نصوص القرن السابع عشر، إشاراتٍ كثيرةً إلى وضع الشعب المختار، فهم: "المختارون"، "شعب الله"، "شعب المسيح"، "جنود المسيح"، "القدّيسون المنظورون". وكان أهلي يُسمُّون ولاية ماساشوستس، "أرض الله"، بالطريقة نفسها التي ندعو بها "الكيبك": "المقاطعة الجميلة".

إنَّ فكرة الاستعلاء هذه على سائر الأُمم، تُفسِّر على نحو واسع، الجوانب الإمبريالية في سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة. لا شكَّ في أنَّ تحليل الماركسيّة للإمبرياليّة الرأسماليّة، تحليل صحيح: فالأميركيّون الذين يُشكِّلون 5.6٪ من سكان العالَم، ويملكون 50٪ من ثروة الأرض، هم على استعداد للقيام بأيِّ عمل يُمكِّنهم من الاحتفاظ بقوتهم الاقتصادية. ومع ذلك، فليس هذا هو الواقع الاقتصادي، الذي نستشفُه من خطاب السياسيّين الأميركيّين. وليس هو الذي يُعشِّش في فكر الشبّان الأميركيّين، الذين يُدعَون للمغامرة بحياتهم في النزاعات الدوليّة. فإنَّ ما يعني السياسيّين والجنود، إنَّما هو تفوُّق القِيم

الأميركية، ونموذج الحياة الأميركيّ. والبرهان على هذا التفوّق، يعود إلى أنَّ الله نفسه هو الذي خصَّ الولايات المتحدة بدعوتها المسيحانيّة.

إنَّ الدولة تكتسي طابعاً دينيّاً في الفكر الطُهرانيّ. وطالما أنَّ الدولة هي مِن صُنع الله، فإنَّ الولاء لها يصبح شكلاً من أشكال الإيمان الديني. وقد لاحظ "ترولتش" (Troeltsch) أيضاً ذلك، فقال:

"كانت البروتستانتيّة تَعدُّ الدولة مؤسَّسة دينيّة، وتعتقد أنَّ غايتها إنَّما هي حماية الجماعة المسيحيّة والشريعة الأخلاقيّة"[4].

وإنَّ اليقين بأنهم شعب الله المختار، هو بالضبط الذي يمنح الأميركيين الشعورَ بواجب أداء دور الشّرطة العالَمية. وإنَّ ذلك لَيشكِّل جزءاً لا يتجزَّأ من تقليد "عبء الرجل الأبيض"، الذي ورثه الأميركيّون عن البريطانيّين. فهم مُلزَمون بفرض ثقافتهم على سائر الشعوب، لأنها ثقافة أثيرة لدى الله. وإنَّ هذه الذهنيّة لتفسِّر التبرير الأخلاقي الذي كان الأميركيّون يدَّعونه، عندما اجتاحوا جيرانهم إبَّان حروبهم التوسُّعية: في كندا عام 1822، في المكسيك عام 1848، في المستعمرات الاسبانيّة عام 1898. وكانت بالطبع الحجّة ذاتها التي تمسَّكوا بها خلال حرب فييتنام.

كانت الحرب على العراق فرصةً لمزاودات صاخبة من التعصُّب القومي، وقمّة الاحتفاء بوضع الشعب المختار. فالعدوّ ليس بمسيحيٍّ ولا بيهوديّ. وكان رجال السياسة والإعلام يتحاشون عن الدافع الاقتصادي: ألا وهو خطر فقدان نفط الكويت. وكانوا يدعون الكويت "بلداً ديمقراطياً"، مع أنَّ التصويت فيه مقتصر على أقليّة من الذكور.

وخلال هذه الحرب، كان الأميركيّون يحملون شرائط صفراء، ويُعلِّقونها على أبواب بيوتهم وعلى سياراتهم؛ كانوا بذلك يشيرون إلى دعمهم الجنود الذين يقتلون المدنيّين العراقيّين، في حين أنّ هؤلاء المدنيّين عاجزون عن مواجهة حاكمهم المستبدّ.

**والصحافة الأميركيّة لا تطرح السؤال حول عدالة السياسة في الشرق الأوسط. وهم يهاجمون العراق في اللحظة التي اندفع فيها خارج حدوده.**

**ومع ذلك، فقد مضت سبعةٌ وعشرون عاماً على سماحهم لـ "إسرائيل" باحتلال غير مشروع، لأراضٍ في مصر وسورية ولبنان والأردن، وذلك في تحدٍّ لقرارات الأُمم المتحدة.**

**ويستهوي الأميركيّين أن يفكّروا بأنّ الأجانب يقدِّرونهم لتدخُّلاتهم الدوليّة. ففي غداة آخر قصف استهدف بغداد، وفي الوقت الذي كانت قد انتشرت فيه شائعاتٌ، مفادها أنَّ حياة الرئيس السابق بوش في خطر، قالت لي سيّدة أميركيّة مُسنَّة: "إنَّ سياستنا في الشرق الأوسط سياسة مبنيّة على الغيريّة". وإنَّ تعليقها هذا لَيُذكِّرني بما قالته سيِّدة "إسرائيلية"، التقيتُها خلال مؤتمر دولي عُقِدَ في اليونان عام 1990، إذ أعلنتْ بالفرنسيّة ودون مواربة، أمام جمع من قوميّات مختلفة: "إنّي لا أُحبُّ الأميركيّين". وكانت تجهل أنَّ ثمّة أميركيَّاً بين مُحدِّثيها. فإن كانت هذه المرأة تُمثِّل رأياً شعبيَّاً في "إسرائيل"، وإنْ كان "الإسرائيليّون" النَّمطيّون لا يحبّون الأميركيّين، فهذا يعني أن ليس هناك مَن يحبّهم. فإنّ "إسرائيل" هي بكل تأكيد البلد الذي تدعمه الولايات المتحدة بأقصى قدر من الوفاء. وليس هناك مَن يعلم حجم المليارات من الدولارات التي تُنقَل كلَّ عام من الولايات المتحدة إلى "إسرائيل".**

**لست أرى سوى حلٍّ واحد لإنقاذ الولايات المتحدة، من ادِّعائها المسيحانيّ المحزن في الشؤون الدوليّة، وهو تكليف هيئة الأُمم المتحدة بهذا الدور. أوَليسَت الغاية من هذه المنظّمة حلّ النزاعات الدوليّة؟ ويجدر بالحكومة الأميركيّة أن تبدأ باحترام قرارات الأُمم المتحدة، التي واجهتها حتى الآن، بالاستهتار التّام. ويخطر ببالي، على سبيل المثال، القرار الذي يطالب الولايات المتحدة، برفع حصارها عن كوبا.**

كما يتوجَّب أيضاً عليها أن تُسدِّد مليارات الدولارات الكثيرة، التي تدين بها للأمم المتحدة، وفق أمينها العام بطرس بطرس غالي[5].

إنَّ فكرة الشعب المختار تحتفظ بقوّتها اليوم، كما بالأمس، في فكر معظم الأميركيّين. وإنِّي لأذكر دهشتي إذ سمعتُ أحد الشيوعيّين الأميركيّين، يدَّعي أنَّ ما تحظى به الثقافة الشعبيّة الأميركيّة من جاذبيّة عالية، يُشكِّل برهاناً إضافيّاً على تفوُق الأُمّة الأميركيّة. وفي كلِّ صباح، يُردِّد جميع طلاب الولايات المتحدة، كلمات قسم الولاء لبلادهم: "أُمّة واحدة، بعد الله"، كما نقرأ في كلّ بطاقة ماليّة هذه الكلمات: "إنَّنا نثقُ بالله". ولا يسع المرء الامتناع عن إجراء مقارنة مع شعار سادَ ألمانيا لخمسين سنة خلت: "الله معنا".

إنَّ "تيموثي ماك فيغ" (Timothy Mc VEIGH) وأشباهه من اليمين الأميركيّ المتطرِّف، يُمثّلون مأساة الأسطورة الأميركيّة. فإنَّ عيبهم يقوم بالضبط على الاقتناع الصادق بأنّ جميع ما تعلّموه في المدرسة الابتدائيّة، أيْ أنَّ جميع المؤسَّسات السياسيّة الأميركيّة، ودستور هذا البلد، أنَّ كل ذلك هو من منشأ إلهيّ، وأنّ الأجداد المؤسِّسين كانوا أناساً يفوقون طبيعة البشر. وإن هم قالوا منذ مئتي عام، إنَّ للبشر حقّاً في حمل سلاح ناري، فقد أصبح ذلك حقيقة أبديّة، حتى لو فقد (36.000) أميركيّ الحياةَ كلّ عام، وكأنهم ضحايا تُقدَّم على مذبح الوطنيّة العمياء.

إنَّ الانتماء إلى الأُمة الأميركيّة هو مصدر عزاء بالنسبة إلى الأميركيّين. وأيَّة كانت الكارثة التي تصيبهم في نطاق حياتهم الشخصية والجماعيّة، فهم يبتهجون بانتمائهم إلى الشعب المختار. وهم يرفعون عَلَمَهم الوطني في غرفهم، في المشاغِل، أو في سكنهم في دور المسنّين. لكأنّي بالعَلَم يُشكّل تأشيرةً للدخول مباشرة إلى السماء. فهو يحلُّ محلَّ الصليب. والعَلَمُ يُرفَع في كلّ مكان تقريباً: في المدافن،

في المحلاّت، في الحدائق، في المنازل، على زجاج السيارات، وعلى الثياب. فهو يرفع المعنويّات ويوفّر الحماية.

تُبرز اللاهوتية البريطانية، "كارين أرمسترونغ" ( Karen ARMESTRONG) ما لرموز الشعب المختار، من دور دينيّ في الولايات المتحدة، لدى أولئك الذين لا يؤمنون بالله، فتقول:

"كثيرٌ من الأميركيّين الذين لا يؤمنون بالله، يتقبَّلون الأخلاقيّة الطُّهرانيّة بشأن العمل والعقيدة الكلفينيّة حول القدَر والنعمة، إذ يعدّون أنفسهم بمثابة "أُمَّة مختارة"، يُشكِّل عَلَمُها وشعاراتُها مُبرِّر وجودٍ شبه إلهيّ"[6].

كثيراً ما يميل خطاب السياسيّين إلى هذه الصفة، صفة الشعب المختار. قال الرئيس "كلينتون" أمام الكونغرس: "إنَّ الولايات المتحدة هي أفضل بلد في العالَم"، فصفَّقَ له الجميع. وأنا الذي وُلدتُ في واشنطن، أرى للتوّ المفارقة: فإنّ "كلينتون" يؤكّد عظمةَ الشعب الأميركيّ في قلب المدينة التي تمتلك أكبر نسبة إجرام في العالم الرّاهن، إنْ لم أقل في تاريخ الكون (ثَمَّةَ 450 حادثة قتل سنويّاً، لعدد من السكان لا يتجاوز 600.000 نسمة، في حين أنَّ تجمُّع مدينة مونتريال، وفيها ضعف ما في واشنطن من سكّان، سجّل 73 حادثة قتل عام 1993).

والحال أنَّ شعباً ما لا يمكنه أن يكون مختاراً، إلاّ بالنسبة إلى الشعوب الأخرى. وبعبارة أخرى، فإنّ الولايات المتحدة متفوّقة، لأنّ الشعوب الأخرى دونها. وإنَّ الطُّهرانيّين هم شعب الله، لأنّ الشعوب الأخرى ليست كذلك. إلاّ أنه يوجد، داخل الأُمَّة الأميركيّة، نوع آخر من الشعب المختار، وهو تقليد يعود إلى القرن السابع عشر. وفي الواقع، فإنَّ الطُّهرانيّين كانوا يعتقدون أنَّ "المتجدِّدين" (أي العائشين

في النِّعمة الإلهيّة) يُشكِّلون المختارين الحقيقيّين، إذ هم المختارون بين المختارين. إلا أنَّه كان صعباً، إنْ لم يكن مستحيلاً، تحديدُ مَنْ هو المختار بدقّة. ومع ذلك، فقد كان واضحاً أنَّ الهراطقة، مثل أصحاب شيعَتَي الصاحبيّين (Quakers) وتجديد العماد (Anabaptistes)[7]، ليسوا من المختارين. أمّا الآخرون جميعاً، فإنْ لم يكونوا من المختارين، فقد كانوا، أقلّه، يتظاهرون بذلك.

إنَّ عقيدة الاختيار المسبّق بواسطة النِّعمة الإلهيّة، قد دَمَغَت خصوصاً القرن السابع عشر. وفي القرن الثامن عشر، تخلّى مجتمع "إنكلترا الجديدة" عن طبيعته الدينيّة، لصالح المآرب الاقتصاديّة. كان ذلك بداية الرأسماليّة واحتلال الأرض. فَغَيَّبَ الحماسُ التجاريُّ آنئذ الحرارةَ الدينية، بحيث وجدت السُّلطات الكَنسيَّةُ نفسها، مضطرَّةً لتعديل أنظمتها على صعيد الانتماء إلى الكنيسة. فانزلق تحديدُ مفهوم الاختيار انزلاقاً رقيقاً، فبات المختارون الجددُ هم الأغنياء، وبات غير المختارين هم الفقراء. وأصبح وضع الرجل الغنيّ في ذهنيّة "إنكلترا الجديدة"، عطيّةً من الله، وتوحَّدَ مع وضع الإنسان الذي تلمسه نعمةُ الله. واتَّخذَت النِّعمةُ الداخلية شكلاً مادّياً وظاهراً: فبوسع المرء أن يرى مَنْ هو غنيٌّ ومن هو فقير.

وتُقاس قيمةُ الإنسان وفقاً لثروته. ههنا تجد مصدرَها سطحيّةُ الأميركيّين، التي كثيراً ما تفاجئ الأوربيّين.

لقد ظهر منذ القرن الثامن عشر، هذا التعريف الجديد للإنسان المختار. فإنَّ الحاكم "جون ونثروب" (John WINTHROP) (1588–1649) يفتتح بيانه، "نموذج المحبة المسيحيّة"، بالكلمات التالية:

"إن الله الكُلّيِّ القدرة، قد جعل، في عنايته المقدَّسة والحكيمة، الوضعَ البشريَّ، على حالٍ يتوجَّب معه، في جميع الأزمنة، أن يكون بعضهم أغنياء، وبعضُهم ذوي قدرة وكرامة، وبعضُهم وضيعين وخاضعين"[8].

فليس بوسع الأغنياء أن يكونوا المختارين في غياب الفقراء، إذ يظهرون بالمقارنة بهم، متفوِّقين بكلّ وضوح.

إنَّ هذه الظَّاهرة تُفسِّر، إلى حدٍّ ما، الرفضَ المُطلَق الذي يُبديه الأميركيّون الأغنياء، حيال جميع أشكال الاشتراكيّة. فهم يرون من الطبيعي أن يملك واحدٌ بالمئة من السكان، خمسين بالمئة من الثروة. فإنَّ الله هو الذي أقام الغنى كي يؤدِّب غيرَ المختارين.

في شهر حزيران من عام 1993، عُدت إلى جامعة هارفارد، بعد انقطاع دام خمساً وعشرين سنة. أمام مداخل المدينة الجامعيّة، مئات من المشرَّدين يفترشون الأرض، أو يتسوَّلون. وكان العميد في الداخل، يتسوَّل هو أيضاً، راجياً من الخرّيجين المزيد من التبّرع للجامعة، مع أنَّها أغنى جامعات العالم. (فإنَّ دفعتي، وهي تضمُّ خرّيجي عام 1968، قد لبَّت النِّداء، فدفعت هذا العام مبلغ سبعة ملايين دولار ونصف المليون). وأمعنتُ التفكير: ترى، أيّة نسبة مئويّة من هذا المبلغ، يمكنها أن تبني مآويَ لهؤلاء المعدمين القائمين بجوارنا؟

إنَّ الهوَّة التي تفصل الأغنياء عن الفقراء، تزداد اتِّساعاً. وقد بَيَّنَ الاقتصاديُّ "جون كينيث غالبريث" (John Kenneth GALBRAITH) حجمَ هذه الظّاهرة:

"عام 1980، كان مديرو أعظم ثلاثمائة شركة أميركيّة، يربحون 29 مرّة أكثر ممّا يربح العامل المتوسط. وبعد عشر سنوات، أصبح دخل هؤلاء المسؤولين الكبار يفوق 93 مرّة دخل العامل نفسه. وخلال هذه السنوات العشر، انخفض قليلاً دخل العامل الأمريكيّ المتوسط"[9].

خلال الأعوام 1977–1990، ازداد فقر 99٪ من الأميركيّين، فيما أكثر الأميركيّين ثراءً، وهم يُشكِّلون واحداً بالمئة من السكان، ازدادت ثروتهم بنسبة 110٪. ويسعنا أن نصف هؤلاء

بالقلّة الثريّة أو المقتدرين ماليّاً، وجميع الآخرين بالأرقّاء. ولا يخطر ببال الأرقّاء أن يتحرَّروا من القلّة الحاكمة، لأنّ الأميركيّين، تبعاً للتقليد الطُهرانيّ، يعتقدون أنَّ الأغنياء طيّبون. ويسود الاعتقاد التقليديّ في جميع بلدان العالَم تقريباً، وحتى في إنكلترا، أنَّ الأغنياء هم على الأرجح أناسٌ سيّئون. والعكس هو السّائد في الولايات المتحدة.

من ذلك مثلاً أنَّ الأميركيين لا يسألون مَنْ هم المستفيدون من الدَّين القوميّ. ففي عام 1992، بلغ هذا الدَّين 4.064 تريليون دولار، فيما الفوائد المترتّبة على هذا الدَّين بلغت 292 تريليون دولار. ما هي الجيوب التي تبتلع كلَّ هذه الأموال؟ إنّ مستقبل الشعب الأميركي قَيْد الرّهن، كي يتيح للقلّة الحاكمة، للرأسماليّين والمستثمرين في "وول ستريت" (Wall Street) أن يملؤوا صناديقهم. ولماذا لا يُفكّر الأرقّاء بتبنّي قانونٍ، من شأنه أن يفرض ضريبة قصوى، ولنقل مليون دولار على الفرد الواحد، كي يُصفّوا هذا الدّين؟ والجواب بسيط: إنَّ القلّة الحاكمة هي الشعب المختار حقّاً، وقد نالوا امتيازاتهم بفضل النِّعمة الإلهّية. فلا يحقّ للأرقّاء أن يُسائِلوهم بشأن ثرواتهم.

إنّ تعريف الإنسان المختار عرف تبدُّلاً جديداً في القرن العشرين. فالمختارون لم يعودوا الأغنياء، وإنَّما هم الناجحون. يعود هذا التبدّل إلى أنَّ البعض فَهِمَ أنَّ بوسع الإنسان أن يكون غنيّاً، وأن يحيا في الوقت نفسه حياةً "بائسة" تُثير الشَّفقة. وفي الواقع، فهنالك الملايين من الأميركيّين الذين ورثوا ثروات طائلة، والذين، في حالات كثيرة، لا يمارسون أيَّ عمل، ولا يملكون أيَّ تحصيل جامعيّ، ويُمضون العمر في مؤسَّسات للعلاج النَّفسيّ، أو هم يكتشفون الجنَّةَ في المسكرات أو المخدّرات. إنهم، على الرّغم من ثرواتهم، لا يُصنَفّون بأيٍّ حال في صفوف المختارين.

منذ القرن السابع عشر، كان الطُهرانيّون يعتقدون أنَّ النجاح، مثله مثل كلِّ شيء خَيِّر، هو عطيَّة من الله. وتبعاً لذلك، كان الذين يُحقِّقون النجاح، يشهدون للنِّعمة الإلهيّة، ولانتمائهم إلى فئة المختارين. هذه الفكرة، كان "أوريان أوكس" (Urian OAKES) – (1631–1681) يُعبِّر عنها بالكلمات التالية:

"بوسع التاجر أن يُمارس عمله، وأن يُقدِم بأسلوب عقلاني على مشاريع، ولكنّه لن يصبح غنيّاً، ما لم يمنَّ عليه الله بالنجاح"[10].

ماذا يعني النجاح بالنسبة إلى الأميركيّ؟

متابعة دروس متقدمة في ما يُعدُّ جامعةً مرموقةً، الحصول على عمل مجزٍ، تحقيق المزيد من الرّبح بوسائله الخاصة، كسب احترام زملائه وجيرانه، ممارسة حياة جنسيّة نشيطة. ويرى الأميركيّون أنَّ النجاح هو شيءٌ ملموس، قابلٌ للقياس مثل المال. ومرَّة أخرى، يتبيَّن لنا أنّ الأميركيّين لا يريدون أن يتجاوزوا مظاهِر الأمور، في تقويمهم قيمةَ الحياة.

إنَّ هَوَسَ النجاح لدى الأميركيّين يصدم الأجانب. وإنَّ "إيزابيل أليندي" التّشيليّة (Isabel ALLENDE) تلاحظ ذلك في كتابها (المخطَّط النهائي)، فتقول:

"إنَّ الفشل والنجاح لا وجودَ لهما، وقد ابتكرهما الأميركيّون"[11].

ويبدو أنَّ الأميركيين احتاجوا إلى معيار جديد يُحدِّدون به مَنْ هم المختارون، طالما أنَّ معايير القرون السابقة قد فقدت قيمتها.

إنَّ الحركة النِّسائيّة الأميركيّة، قد أدخلت أيضاً رؤيةً أخرى في مفهوم القَدَر المسبَق: فالنساء هُنَّ المختارات، والرجال هم غير المختارين. إنَّ ذلك، دون شَكّ، ردُّ فعل النساء على مجتمع بطريركيّ تقليديّ، كان يقرُّ للرجال بصفة الشعب المختار، بالنسبة إلى النساء

غير المختارات. وترى رائدات هذه الحركة أنّ النساء يتفوّقن على الرجال، لأنهنّ لا يستطعن ممارسة الاغتصاب، ولأنَّهنَّ كُنَّ، طوالَ قرون وقرون، ضحايا صامتاتٍ إزاءَ تطاول الرجال عليهنّ.

من هنا، ظهور موجة جديدة في أوساط المثقّفين الأميركيّين، تقوم على التباهي بدور الضحيّة؛ وكلّما كان الإنسان في وضع الضحيّة، ازدادت الفُرَصُ لديه كي يكون من المختارين الجدُد.

تميل بعضُ رائدات الحركة النّسائيّة، إلى استثمار نماذج مُكرَّرة، لا سيّما نموذج "الطّيب" و"الشرير". من هنا جاء التأكيد بأنَّ كلَّ امرأة طيّبة، وكلَّ رجل شرير. إنَّ مثل هذا الموقف، على ما فيه من سطحيّة، ينحدر دون شكّ من التقليد الطُّهرانيّ، الذي كان يقسم الجنسَ البشري إلى فئتين متعارضتين: المختارين ضدّ غير المختارين. وإنَّ "مارلين فرينش" (Marilyn FRENCH)، وهي من رائدات هذه المدرسة، لتؤكّد:

"في حين أنَّ الرجال يتباهون ويضطربون ساعةً من الزَّمن فوق المنصّة، ويجأرون في الملاهي والملاعب الرياضيّة، ويُفجِّرون أسلحةً غريبةً في مسعاهم الدَّائم وراء النجاح والشُّهرة الشَّخصيّين، وهم يبحثون عن برهان رمزيّ على تفوُّقهم، تواصل النِّساءُ التحكُّمَ بالعالَم"[12].

إنِّي لا أعترض على صحّة مطالب الحركة النسائيّة، ولا بدَّ لي أيضاً من الإقرار بأنّي أبذل جهدي كي أتحاشى عن نمط الرجال، الذي ينسجم مع الوصف الذي قدَّمَتْه فرينش.

إنَّ كراهيّة الرجال تُولِّد لدى بعض رائدات الحركة النِّسائية، احتقاراً عامَّاً للحضارة. فإنَّ فرينش مثلاً توحي بأنَّها تنبذ أعمال الكلاسيكيين الإغريق والعبرانيّين واللاتين، لأنَّهم ثمرةُ ثقافة بطريركيّة. وهي تؤكّد:

"إنَّ العهد القديم، مثله مثل الإلياذة والإنياذة، يُشكِّل نموذجاً لأدبٍ ممتاز، يبرِز أهمّية الحرب وسيطرة الرجل وقتل الأعداء – ولكنَّ الأعداء موجودون في كلّ مكان – بدلَ أنَّ يبرز أهميّة التعاطف والتَّسامح"[13].

يبدو لي أنَّ قراءتها للعهد القديم في غاية السطحيّة، وأنَّ تفسيرها لا يتّفق البتَّة مع تفسيري. فإن كانت رائدات الحركة النسائيّة يُردِّدْنَ نَبْذَ كل ما أنتجته ثقافة سيطر عليها الرجال، فلا بُدَّ لَهنَّ من نَبْذِ حضارتنا كلّها.

كثيراً ما قال لي بعض الناشطين في الحركات النّسائية، إنّي لا أستطيع أن أفهم ما هي المرأة، لأني رجل. هل يستحيل عليَّ أن أفهم سكان كيبك، لأنّي أميركي، أو أن أفهم أدباء القرن التاسع عشر، لأنّي أنتمي إلى القرن العشرين؟ إن كان ذلك صحيحاً، فليس ثمَّةَ أيّةُ قيمةٍ لمجموع الدراسات الإنسانيّة. إنَّ ذلك لَيُلزِمُنا فقط بالآني والحاضر.

أيّاً كان الوضع، وفي عودة إلى بعض الممارسات التابعة للحركة النِّسائيّة أو الداعية إليها، لا بدَّ لي من الاعتراف بأني على وشك فقدان صبري، بعد عشرات السنين من الصبر في مواجهة تأنيث الخطاب أو تفريغه من الجنس. فإنَّ التعبير الملتزم بكلا الجنسين يثقل اللسان. فلنتصوَّر مثلاً: "جرى نقاش بين الكيبكيّين والكيبكيّات من جهة، والكنديّين والكنديّات من جهة ثانية. وكان بين الجمهور أميركيّون وأميركيّات، ومكسيكيّون ومكسيكيّات، وكوبيّون وكوبيّات".

إنَّ الرسالة الوحيدة التي تنقلها مثل هذه التكرارات، هي أنَّ المتحدِّث يعرف الحركة النِّسائيّة ومطالبها. إنَّها طريقة محكومٌ عليها بالتلاشي. وإن كان يتوجّب على اللسان أن يعكس مستوى معلومات المتحدّث، الثقافيّة والعلميّة، في جميع الأمور، فإنَّه سيضطرّ للقول مثلاً: "إنَّ الشمس تتظاهر بالشروق"، أو أيضاً "يبدو أنَّ الشمس

تشرق"، بدلاً من "تشرق الشمس"، لأنَّ ثورة كوبرنيك، التي تعود إلى خمسمئة عام، علَّمتنا أنَّ الشمس لا تشرق ولا تغيب. ولكنّه باتَ من الأسهل أن نقول ببساطة إنَّ الشمس تشرق، فيتبنَّى الكائن البشريُّ بصورةٍ طبيعيةٍ، أكثرَ الممارسات سهولةً.

إنَّ "مارلين فرينش" وبعض داعيات الحركة النِّسائيِّة، قد فقدن كلَّ وهم بشأن الثقافة الأميركيّة الحاليّة. وهُنَّ، في خيبتهنَّ، يَتَّفقنَ مع العديد من المثقّفين الأميركيّين. فإنَّ "فرينش" ترى أنَّ الولايات المتحدة تملك على الأرجح أكبر نسبة اغتصاب في العالم[14]، وأنَّ مرارة داعيات الحركة النِّسائيَّة الأميركيّات حيالَ الرجال، تشتدّ كثيراً في ما يتعلّق بالعلاقات الحميميّة بين الجنسين. تقول فرينش:

"إنَّ الثقافة الأميركيّة، في الأفلام والكتب والأغاني والتلفاز، تُعلِّم الرجال أنَّ ينظروا إلى ذواتهم كقَتَلة، والى التوحيد بين القتل والجنس، بين الممارسة الجنسيّة والغزو العنيف. لذا باتَ من الصعب على الكثير من الرجال أنَّ يُميِّزوا بين الاغتصاب والحبّ"[15].

إنَّ الغضب الذي تشعر به داعيات الحركة النِّسائيَّة الأميركيّات حيالَ الرجال، يُؤيِّد فكرتين أساسيّتين في المحاولة الحاضرة.

الأولى، أنَّ النزعة الطُهرانيّة إلى تقسيم العالَم بين مختارين وغير مختارين، ما تزال قائمة.

الثانية، أنَّ مجتمعاً باتت فيه العلاقات الجنسية ساحةَ حرب، هو حقّاً مجتمعٌ مريضٌ، شقيٌ وموبوء.

إنَّ الذهنيّة الطُهرانيَّة التي دَعَمَتْ توسُّع رأسمالية الولايات المتحدة، ستُسبِّب انحطاط هذا البلد، بفعل التفسُّخ الاجتماعي والسيكولوجي الذي أحدثته.

إنَّ أبرز ضحايا التاريخ الأميركيّ هم الزنوج. فإنَّ العنصريّين يعدّون أنفسهم الشعب المختار بالقياس إلى الزنُوج. فإنَّ "المورمون"[16]،

مثلاً، قد أعلنوا ذلك لفترة طويلة وبصورة صريحة. فكانوا يدَّعون أنَّ الزنوج هم أحفاد "شام"، الذي كان "نوح" قد لعنه بقوله: "إنَّه سيكون آخر العبيد" (سفر التكوين 25/9)، لأنَّ "شام" لم يستر عريَ أبيه "نوح". إنَّ سفر التكوين لا يوضح أنَّ أسرة شام قد أصبحت العرق الأسود، ولكنَّ ذلك غير مهمّ. فإنَّ المورمون قد حظَّروا الكهنوت على الزنوج، بحجّة أنَّهم أحفاد شام، حتى عام 1980، إلى أن بدَّل الله رأيه تحتَ ضغط جماعات الدّفاع عن الحقوق المدنيّة في الولايات المتحدة.

إنَّ الشقاء الذي عاشه الزنوج في تاريخ الولايات المتحدة، معروفٌ جدّاً. ثمَّة أدبٌ واسع بهذا الشأن، إلا أنّي سأسمح لنفسي باعتماد ذكريات طفولتي التي أمضيتُها في الجنوب. أتذكَّر انحطاط الزنوج، بؤسهم، قهرهم واستغلالهم. كلُّها كانت ملموسة، واضحة. كانت تفقأ العين، حتى عين الطفل. أتذكَّر دورات المياه الخاصة بالرجال البيض والرجال السود، بالنساء البيضاوات والنساء السوداوات. أتذكَّر نَبْعَي الماء المتجاورين، على أحدهما لافتة تحمل كلمة: "للبيض"، وعلى الأخر لافتة تحمل كلمة: "للملوَّنين". وإنِّي لأرى دائماً لافتات عُلّقت عند مداخل المطاعم، ترفض استقبال الزنوج. وكان قد حُظِّر عليهم الجلوس في وسائط النقل، إنْ لم يكن ثَمَّةَ أمكنة كافية للبيض. وكان الزُنوج يُقصَون إلى آخر المقاعد في المسارح. وعندما تحقَّقَ الاندماج في المدارس لأول مرَّة، عام 1953، بموجب قرار المحكمة العُليا، كنت في الصف الثالث الابتدائي. كان الكبار يظنّون أنَّ الاندماج سيكون كارثة، وأنَّ الطلاب الزُنوج سوف يتقاتلون مع الطلاب البيض. إلا أنَّ كلَّ شيء تمَّ في هدوء، وهِمْتُ حباً بمدرِّستي الأولى، الزّنجية السيدة كارول.

ثَمَّة تمييز عنصريٌ يُمارَسُ عمليّاً حتى اليوم في الولايات المتحدة. فقد شاهدتُ مع ابني مباريات رياضيّة في بوسطن، في بداية التسعينيّات، وفي "بوسطن غاردن" (Boston Garden)، وفي "فنوي بارك"

(Fenway Park). وسط أربعة عشر ألف متفرِّج، كانت الوجوه السوداء نادرة، ندرة اللؤلؤ في علبة من المحار. وكثيراً ما خطر ببالي أنَّ البيض يعترضون على التأمين الطبي العام، لأنهم يخشون أن يجدوا أنفسهم جنباً إلى جنب مع الزُّنوج في المشافي. فإنَّ المختارين يفعلون كلَّ ما بوسعهم كي يبتعدوا عن غير المختارين.

لم يعد للطُّهرانيين وجود، ولكنَّ تصوُّرَهم للمختارين وغير المختارين، ما يزال قائماً، على الرغم من جميع أشكال التحوُّلات. ولا بدّ للأميركيّ من أن يحيا خارج بلده طوال سنوات، كي يلاحظ استمرار هذا التصوُّر.

# مراجع الفصل الثاني

[1] بيري ميلر Perry MILLER: (فكر إنكلترة الجديدة: القرن السابع عشر)، بوسطن، بيكن برس، 1961، ص469.

[2] المرجع السابق.

[3] بيري ميلر: (الطُهرانيون الأميركيون: نثرهم وشعرهم)، نيويورك– انكور بوكس– 1956، صفحة 3، 110–114.

[4] إرنست ترولتش Ernst TROELTSCH: (البروتستانتية والتقدم)، بوسطن– بيكن برس– 1958، ص 106.

[5] مقابلة في برنامج Le Point، إذاعة راديو– كندا، 22 آب سنة 1994.

[6] كارين ارمسترونغ Karen ARMSTRONG (تاريخ الله)، نيويورك، الفرد ا. كنوبف /1993/، ص 279.

[7] شيعة بروتستانتية تدعو إلى السلام والبساطة وحب البشر، بعيداً عن كلّ عقيدة.

[8] ناين بيم وآخرون Nine BAYM: (مختارات من الأدب الأميركي)، نيويورك. و. و. نورتن، 1989، ص 22.

[9] مجلة (الحدث الراهن) L'actualite، 15 ديسمبر 1993، صفحة 86 .

[10] بيري ميلر: (الطهرانيون الأميركيون)، صفحة 208.

[11] ايزابيل أليندي Isabel ALLENDE: (المخطط النهائي)، برشلونا، بلازا. يانس، 1991، صفحة 301.

[12] مارلين فرينش Marilyn FRENCH: (الحرب على النساء)، نيويورك، بالنتين، 1992، صفحة 99.

[13] المرجع السابق: صفحة 60.

[14] المرجع السابق: صفحة 191.

[15] المرجع السابق: صفحة 176.

[16] المورمون: بدعة دينية أميركية أسسها جوزيف سميث. عام 1830، ولا علاقة لها البتة بالمسيحية.

# الفصل الثالث

## القسوة

**قال أحد المراقبين في مزرعة، لأحد الزوّار:**

**"إنَّ بعض الزنوج لا يسمحون بأن يجلدهم رجلٌ أبيض، ويقاومون عندما تجري محاولةُ جلدهم. طبعاً، في مثل هذه الحالات، يجب قتلهم". "هوارد زاين" (Howard Zinn).**

**إنَّ القسوة تلعب دوراً أسياسيّاً في التاريخ الأميركي، منذ الحقبة الطُهرانيّة حتى اليوم. وكلّما عُدَّت القسوة بمثابة عقاب إلهيّ، ازدادت خبثاً ومكراً. فإنّ الفرد يُكلِّف الدولة مهمّة إنزال العقوبات، والدولة، إذ تُمثّل الله، تُبرّئ الفرد. وإنّ العذابات التي يُنزلها الشعب المختار بمَن يعيشون في الظلمات، إنّما هي مطلبٌ تفرضه طبيعة الإنسان السّاقط بعينها. وان لم تُبدِ أممٌ ما استعدادها لاقتفاء المثال الأميركي، فهي تستحقّ أن يُقتَل مواطنوها تحت القصف الجويّ.**

**إنّ قسوة الطّهرانيّين تبدو لنا اليوم على جانب مفرط من المبالغة، ولا سيما إذا فكّرنا بأولئك الأشخاص الذين اتُّهموا بالسّحر فشُنقوا. ومع ذلك، فإني أرى أنّ هذه القسوة أقلُّ فظاعةً من قتل ألوف المدنيّين بفعل القنابل الأميركية.**

**وفي الواقع، فإنّ الشخص المتهم بالسِّحر، قد أُعطي فرصةً للدفاع عن نفسه قبل إعدامه، وهذا لم يحدث لضحايا هيروشيما المغمورين، وفييتنام وليبيا والعراق. والحقّ يُقال، إنّه لا تليق البتّة مقارنة درجة الفظاعة بين مختلف أعمال القسوة. ويبقى أنّ القتل الغوغائي للعبيد شنقاً، يجب أن يُدرَج في مطلع قائمةٍ قد تطول كثيراً.**

وفي الحالات الثلاث المذكورة، تواجهنا في كلّ مرة، محاولة يبذلها الشعب المختار ليؤكّد تفوُّقه بالنسبة إلى الشعب غير المختار: إنّهم مالكو النعمة ضدّ الساحرات اللواتي أغواهنّ الشيطان، والأميركيّون ضدّ غير الأميركيّين، والبيض ضدّ الزنوج.

إنّ قسوة الطّهرانيّين ظهرت منذ إبحار سفينة "مي فلوَرْ" ( May FLOWER) عام 1620. كان معظم الأميركيّين يجهلون أنّ الطّهرانيّين يشكّلون أقليّة بين المسافرين. كان "المغامرون" يفوقونهم عدداً. كانوا في معظمهم شُبّاناً شاؤوا السفر إلى أميركا، لا شيء إلا لمتعة المغامرة، كي يعيشوا وسط "المتوحّشين"، في تلك القارة الغامضة. وقد سخر أحدهم من الطّهرانيّين، وأعرب عن رغبته في مشاهدتهم يموتون قبل وصولهم إلى أميركا. إلا أنّ قسوته كانت دون قسوة الطّهرانيّين، عندما تُوفّي هذا الشاب المغامر. فابتهج الطّهرانيّون، وقدّموا مثالاً على النمط الكلاسيكي من الفرح المؤذي. وقد علّق على ذلك "وليم برادفورد" ( William BRADFORD) (1590–1657)، وهو أوّل حاكم على ولاية "بلايموث بلانتشين" (Playmouth Plantation) بالعبارات التالية:

"قد شاء الله، قبل أن نقطع نصف المسافة في المحيط، أن يَضرِب هذا الشاب بمرض خطير، تسبّب في موته بعد نزاعٍ مروّع. فكان هو، إذن، أول من قُذِفَ به في البحر. وبذلك ارتدّت لَعَناتُه عليه، وابتهج رفقاؤه، لأنهم رأوا في ذلك عملاً من أعمال الله العادل"[1]. إنّه ليليق بإله المختارين أن يَقتُل إنساناً غير مختار".

إننا أمام الذّهنيّة نفسها التي تُلهِم اليوم أولئك الذين يغتالون الموظّفين في عيادات الإجهاض. وقد بلغ عدد الضحايا، حتى اليوم، مئة وخمسين. فإنّ أتباع الحركة المناهضة للإجهاض، يعدّون أنفسهم مختارين إزاء غير المختارين، الذين يمارسون الإجهاض، والذين يستحقّون إذاً عقوبة الموت.

في "الحرف القرمزي" (The Scarlet Letter) وهي رواية كلاسيكية عن الحياة الطُّهرانيّة في القرن السابع عشر، يروي "نثانئيل هاوثرن" (Nathaniel HAWTHORNE)، حادثة نموذجية عن قسوة الطّهرانيّين. فقد حدث لبطلة الرواية "هستر برين"، أن وُجدت حاملاً، في حين أن زوجها كان ما يزال في إنكلترا، وقد رفضت أن تعلن عن اسم الأب، لأنّه كان قسّيس القرية. فَحُكِمَ عليها بأن تحمل على ثوبها طوال عمرها، حرفاً قرمزيّاً يُفصح بأنها زانية. فنبذتها الجماعة، فاضطرّت للعيش وحيدة مع طفلها على مقربة من الغابة. وعاد زوجها من إنكلترا، ونجح في معرفة الزّاني. فاعترف القسّيس أمام الملأ بخطيئته، ومات بين يدي "هستر". في هذه القصة الموغلة في الرومانسية، نرى أنّ أشدّ قسوةٍ هي من فعل أفراد الشّعب المختار، الشعب البريء، وأنّ ضحاياه هم الذين يرتكبون الخطيئة، أيّ غير المختارين.

يذكر "وليم برادفورد"، وهو أول حكّام "بلايموث"، قصةً خارقةً لشابٍّ يدعى "توماس غرانجيه" حُكِمَ عليه بالموت، لأنّه ضاجع "حِجْراً وبقرةً وعنزتين وخمسة خراف وعجلين وإوزّة[2]". بل إنّ العقاب تجاوز ما أمر به العهد القديم (سفر اللاويين 15/20–): فقد قُتلت الحيوانات التي ضاجعها، تحت ناظريه، ودُفنت دون أن يُسمح لأحد بأن يحصل على جلد منها أو لحم. وبعد ذلك، أُعدم المُذنب. ويجد "برادفورد" من الصعوبة بمكان أن تُرتَكَب مثل هذه الجرائم في "إنكلترا الجديدة"، حيث يجب أن يسود ملكوت الله بصورة مطلقة. وهو يُعزِّي نفسه، لأنّ الشّاب اعترف بأنّ انحرافه هذا قد مارسه، وهو بعدُ في إنكلترا القديمة الساقطة.

إليكم مثالاً آخر لوحشية طهرانيّي القرن السابع عشر، ولكنّهُ، هذه المرّة، من نمط آخر: إنه قصة الصبيِّة "ميري بامستيد"، إحدى جدّات أمّي. عندما كانت في الثالثة من العمر، سقطت الطفلة

المسكينة من شرفة الكنيسة، خلال إقامة الصلاة. فدعا القسّيس للتوّ المؤمنين للصلاة. إلا أنّ الغاية من صلاتهم لم تكن عافية الطّفلة، أو نجاتها، بل السؤال إلى الله ألا ينجّس دمُ الطفلة الكنيسة!

إنّ أكثر الأحداث غرابةً في تاريخ قسوة الطّهرانيّين، هي، دون شكّ، محاكمات الساحرات في مدينة سالم. فقد اتّهمت مئاتٌ منهنّ، وشُنقت تسع عشرة منهنّ. فقد بدأت "مطاردة السّاحرات" الشهيرة، عندما نشر "إنكريز ماذر" (Increase MATHER) عام 1684، مقالة لاذعة، بعنوان "عنايات مزعومة شهيرة". فهو يحُضّ فيها المؤمنين على ضرورة البحث عن براهين على "سحر واستحواذ شيطانيّ وعقوبات جسيمة فُرضت على خطأة معروفين"[3].

كان عقاب السّاحرات يُخفّف، إن هُنّ اعترفنَ علناً. وعندها كانت النساء المسكينات يروينَ شتى الأمور، بقصد إنقاذ حياتهنّ. من ذلك أنّ "ميري أوسكود" (Mary OSGOOD) أعلنت عام 1692:

"لقد حُملتُ في الهواء منذ سنتين، حتى مستنقع، عمّدني الشيطان فيه، فغطّس رأسي في الماء، وأرغمني على إنكار عمادي الأوّل"[4].

لم يُبدِ الشعب المختار أيّ ارتياب حيال هذه الرواية، بشأن الطيران في الهواء والاتصال بالشيطان. وبذلك نَجَتْ ميري. لم يكن السّحر مقتصراً على النساء. فقد رفض "جايلس كوريه" (Giles COREY)، وهو في الثمانين من عمره، أن يعترف بأنّه ساحر. فسُحق بسبب صمته، تحت حجارةٍ كبيرة.

إن قسوة الشّعب المختار حيال الزنوج، لا تقلّ عن قسوته حيال السّاحرات. ويروي "ميشيل جان دو كريفكور"، ( Michel Jean De CREVECOEUR)، وهو اسم مستعارٌ لـ ج. "هكتور سانت - جون"، وهو أميركي من أصل فرنسيّ، يروي في مؤلّفه

رسائل مزارع أميركي (عام 1782)، قصة زنجي وجده يحتضر في قفص. يقول:

"رأيتُ زنجيّاً، معلّقاً في قفص، وقد تُرِكَ هنا حتى الموت. أرتجِف هلعاً عندما أتذكّر أنّ العصافير كانت قد التهمت عينيه، وأن وجنتيه كانتا ممزّقتين [...] فسألني في لهجته التعيسة أن أقدّم له ماء كي يطفئ ظمأه [...] سألته: منذ متى أنت معلّق هنا؟ أجابني: منذ يومين، ولم أمُت. العصافير! العصافير! يا لي من شقيّ!"[5].

وفي القرن العشرين، يواصل أحفاد الطّهرانيّين تقليدهم في القسوة، حيال الشعوب غير المختارة. ولنتوّقف عند ستٍّ من هذه الحالات: حكم الإعدام، قصف المدن الكبرى، مجزرة "ماي ليه" ( MY LAI)، الحصارات البحريَّة، الفقر، وأخيراً عقوبات اعتقال قصوى. يتزايد عدد الولايات الأميركيّة التي تستخدم عقوبة الإعدام. وهناك ما يقارب 2600 أميركي، ينتظرون تنفيذ عقوبة الإعدام، في سجون الولايات المتحدة. إلا أنّ العدد الحقيقي للأحكام المنفّذة كلّ عام، لا يتجاوز الثلاثين. إنّ هذا الفاصل الكبير بين الرقمين، يعود إلى أنّ من حُكموا بالإعدام، يُمضون السنوات في طلب الاستئناف. وإنّ المبالغ المستخدمة في هذه الدعاوى، تفوق كثيراً ما قد يكلّف السجين المعني، من أموالٍ، لإبقائه على قيد الحياة، إلى أن يموت موتاً طبيعيّاً. إنّه الوهم الأول لأولئك الذين يدافعون عن عقوبة الإعدام.

والوهم الثاني يقوم على الاعتقاد بأنّ إمكانيّة التعرّض لحكم الإعدام، من شأنها أن تردع المجرمين المحتملين. ومنذ أن أُعيد العمل بعقوبة الإعدام، عام 1977، فإنّ عدد الجرائم المستوجبة لعقوبة الإعدام، قد تفاقم بصورة مأساويّة: فقد ازداد خلال الاثنتي عشرة سنة الأخيرة، بنسبة 168٪.

**إنّ عقوبة الإعدام هي، دون شك، شكل من أشكال التعذيب. وهي لا تصلح لشيء، إلا لاستمرار تقليد القسوة الغالي جداً على قلوب الطّهرانيّين.**

**إنّه أسلوبٌ لتأكيد الانتماء إلى الشعب المختار، عن طريق تدمير المستبعدين منه. وقد آن الأوان كي تعترف الطبقة الحاكمة، الشعب المختار، بأنّه هو المسؤول عن السّأم الاجتماعي الحالي، الذي بات فيه الإجرام والعنف أمرين محتومين.**

**إنّ قصف المدن الكبرى، وهو المثال الثاني على القسوة، بدأ خلال الحرب العالمية الثانية. فقد قُتل أكثر من 200.000 مدني إبّان تفجير القنبلة النوويّة في هيروشيما.**

**وقد تواصل هذا التقليد في فييتنام، حيث قتل الأميركيّون ثلاثة ملايين فييتنامي. فإنّ كمية القنابل التي ألقاها الأميركيون فوق فييتنام، تفوق كمية القنابل التي ألقيت فوق أوروبا وآسية، طوال الحرب العالمية الثانية. وليس من يعلم عدد المدنيين العراقيين الذين قتلوا خلال حرب 1991. إنّ قصف المدنيّين يُثير أسئلةً أخلاقيّةً خطيرةً جداً. فهل يحُقّ لبلدٍ أن يقتل مدنيّي بلدٍ آخر، كي يقنع حكّامه بضرورة تغيير سياستهم؟ هل يحقّ لأحد أن يطلب من جندي ما، أن يقتل الأبرياء من طائرته، إن لم يكن من الممكن مقاتلة الضحيّة وجهاً لوجه؟**

**إنّ القتل الأعمى للمدنيّين أصبح من اختصاص الولايات المتحدة. فإنّها، في حدود علمي، البلد الوحيد الذي يُمارسه بصورةٍ شبه منتظمة منذ خمسين عاماً. ثمّة فرضيّتان يسعهما تفسير لامبالاة الأميركيّين حيال ضحاياهم في البلدان الأُخرى.**

**تقول الفرضيّة الأولى إنّ الأميركيّين عاجزون عن تصوّر فظاعة الموت بفعلِ قصفٍ جويّ، لسببٍ بسيط وهو أنهم لم يختبروا يوماً في بلدهم مثل هذا الأمر. والفرضيّة الثانية تُحيل إلى الموضوعة الرئيسة**

التي أوحت هذا الكتاب، وهي أنّ التدمير المجّاني لشعوب غير مختارة، هو أسلوب مروّع لتأكيد الانتماء إلى الشعب المختار.

إنّ مجزرة "ماي ليه"، (MY LAY)، وهي مثال آخر عن القسوة الأميركية، تُظهر عيوب الطّهرانيّين، سواء بسواء لدى المذنبين والمعجبين بهم، المقيمين في الولايات المتحدة. ففي 16 آذار/ مارس 1968، دخلت مفرزةٌ من الجنود الأميركيين، بقيادة الملازم، "وليم كالي"، قرية "ماي ليه"، وهي قرية صغيرة في مقاطعة "كوانغ نغاي" ( Quang Ngai)، في فييتنام. فاستولى الهلع على الأميركيّين، وفقدوا صوابهم، فدفعوا 347 فلاحاً فييتناميّاً ما بين رجل مسنٍّ وامرأةٍ وطفل، وهم سكّان القرية، في خندق وأمطروهم بالرصاص. وهي ذي شهادة الجنديّ الأميركي "جيمس دارسي" (James DURSI):

"إن المُلازم "كالي" ورامياً يُدعى "بول. د. ميدلو" كان يبكي – وهو الجندي الذي أعطى الأطفال الحلوى قبل أن يقتلهم – دفعا الأسرى في خندق (...). وأصدر الملازم "كالي" الأمر بإطلاق النّار... لستُ أذكر كلماته بدقّة، ولكنّ شيئاً من قبيل "ابدأوا بإطلاق النّار". ثمّ توجّه إليّ "ميدلو"، وسألني:

"لماذا لا تطلق النار؟" كان يبكي. قلتُ: "لا أستطيع. أرفض". ثم وجّه الملازم "كالي" و"ميدلو" بندقيّتهما نحو الخندق وأطلقا النار. كان الفييتناميّون يتكدّسون فوق بعضهم البعض. وكانت الأمّهات يحاولن حماية أبنائهن"[6].

وروى الآخر:

"بعد المجزرة، لم يكن بمستطاع اثنين من الجنود أن يتناولا الطعام، لأنَّ بعض الفييتناميّين، في الخندق، كانوا ما يزالون على قيد الحياة ويئنّون. فنهض بعض الجنود، واقتربوا من الكتلة المُكدَّسة في الخندق. ثمّ صرَّح أحدُهم. لقد أجهزنا عليهم"[7].

كان تدمير قُرى برمّتها جزءاً لا يتجزّأ من سياسة الجيش الأميركي. وقد قال الجنرال "ويستمورلند" (Westmoreland) مفسّراً:

"كنّا مضطّرين في بعض الظروف لإزالة القرى أو البيوت المهجورة (...)، ولترحيل القرويّين وتدمير القرية"[8].

أمّا الملازم "كالي" (CALLEY)، فقد أصبح بطلاً أميركيّاً، أحد الأبطال النّادرين في حربٍ كانت أكثر الحروب فتكاً في التاريخ الأميركي، باستثناء حرب واحدة، هي حرب الانفصال. ولقد كتب خمسة عشر ألف أميركي للرئيس نيكسون، كي يعبّروا عن تعاطفهم مع هذا الملازم، بل عن إعجابهم به. وإنّ 68٪ من الذين أجابوا على استطلاعٍ أجرته صحيفة التايمز، صرّحوا بأنهم لم يضطربوا لقصّة المجزرة. وإنّ أحد المحاربين القدامى في فييتنام، وهو من سكّان كارولاينا الجنوبية، دافع عن كالي على النحو التالي:

"يجب أنْ تُفرَض عقوبة دولارين على "كالي"، ويُعطى علبةً من السجائر، ويُرفَّع إلى رتبة نقيب، ويُمنَح مركزاً في البنتاغون. (...) إنّ "شارلي كونغ" ليس جنديّاً عاديّاً، ولكنّه على الأرجح امرأة مُسنّة لا أسنان لها، عجوزٌ أسدل لحيته أو صبيٌّ صغيرٌ ينصبُ ألغاماً. إنّ الملازم "كالي" ورجاله لم يفعلوا سوى واجبهم – أعني بذلك البقاء على قيد الحياة في حرب الأناس الأغنياء ضدّ الأناس الفقراء"[9].

وفي الواقع، فإنَّ العديد من البروتستانت المؤمنين كانوا يعتقدون بأنَّ إبادة الشيوعيّين أمرٌ لهُ ما يُبرّرهُ كليّاً[10].

حُكم على الملازم بالسجن مدى الحياة، ولكن أُخلي سبيله بعد ثلاث سنوات. إنّ واجبَهم يفرض عليهم قتل المدنيّين الفييتناميّين، لسبب بسيط وواضح، وهو أنهم ينتمون إلى الشعوب غير المختارة، إلى غير الأميركيّين، إلى الساقطين.

والأسوأ من كلّ هذا، فقد كان الأميركيّون يستمتعون بذلك. فإنّ فعل القتل بات تأكيداً لانتمائهم إلى الشعب المختار، وعلامةً على أنّ الله اختارهم، كي يتفوّقوا على الآخرين.

إلا أنّ هذه المجزرة قد أحدثت صدمةً في الولايات المتحدة، ولكن هذه الصدمة لم تدُمْ طويلاً. يا لخبث الطّهرانيّين النموذجيّ! إنّ الأميركيّين يؤيّدون ذبح غير المختارين، شريطة أن يكون الذبح نظيفاً، أن تكون أدوات القتل مجهولة، أن ينقضَّ الموت من الطائرات التي تختفي، دون أن يُتاح للطيّارين أن يروا ضحاياهم. وإذا ما الدولة قَتَلَتْ، إما بالقنابل، أو بالكرسيّ الكهربائي، وإما ببيع الأسلحة الناريّة في المدن الأميركية، فالموت يبدو للأميركيّين مُبرّراً، إنْ لم يكن مرغوباً فيه.

إنّ قسوة الشعب الأميركي تُتَرجم أيضاً بأشكال الحصار، الذي تفرضه الحكومة على البلدان الصغيرة، التي لا تملك وسائل الدّفاع عن ذاتها. وسواء أكان ذلك في كوبا أم فييتنام أم هاييتي أم العراق، فإنَّ تأثير الحصار هو على الدوام فرض المجاعة على الشعب. والحكومة الأميركية تدّعي أنّ فرض مثل هذا الحصار، من شأنه أن يُسرِّع في انهيار السُلطة الحاكمة. والتاريخ يأتينا بالبرهان العكسي. فالحاكم في دولة شموليّة مثل كوبا، يستمرُّ في الحكم على الرغم من كلّ شيء. فإنّ المساكين الذين يعيشون في كوبا، لا يملكون القدرة على قلب نظام "كاسترو"، حتى، بل خصوصاً إذا حُرِموا ممّا هو ضروريّ.

وهكذا، فإنَّ مَنْ يعاني الجوع الذي تفرضه الحكومة الأميركية، إنَّما هم هؤلاء المساكين، وليسوا حكامهم. فهم الذين يحلُّ بهم المرض، أو يفقدون البصر بسبب افتقارهم إلى الفيتامينات. والوضع في فييتنام فاق ذلك سوءاً. فالأميركيّون بدؤوا أوّلاً بإبادة آلاف المدنيّين بالسلاح، ثم حاولوا قتل الناجين بالمجاعة، ففرضوا الحصار.

تلك هي الحال في هاييتي، وهي آخر ضحايا الحصار. فالعسكريّون

الأثرياء يُسيطرون على مقّدرات البلد، ويزدادون ثراءً، في حين أنَّ المعدَمين، الذين يُعدّون بين أفقر فقراء الأرض، يزداد شقاؤهم. جاء في مجلة التايمز TIMES:

"فُرِض الحصار منذ خمسة أشهر، وما يزال العسكريّون في السلطة (...) فإنّ الفقراء هم الذين تتفاقم آلامهم، مع أنَّهم من أفقر فقراء نصف الكرة الغربي. والمسؤول عن ذلك هو ارتفاع أسعار النقل. وقد تضاعف سعر المواد الغذائية، الأمر الذي جعل الكثير من المواد الأساسيّة، مثل الأرزّ والفاصولياء والزّيت، في غير متناولهم. (...) في هذه الأثناء، ازداد العسكريّون ثراءً وتحكّماً: فهم الذين يديرون اليوم احتكارات الدولة، مثل الكهرباء والهاتف ومنشآت الموانئ. وقد صرّح أحد ضبّاط النجدة في غضب: "من المرجّح أنّ العسكريّين أُصيبوا بفتوق في الحالب، لكثرة ما ضحكوا وسخروا من الحصار"[11].

ولكنْ هل من أهمّية لآلام الناس التي تُسبّبها الحصارات، طالما أنّ الضّحايا ليست من الشَّعب المختار؟ فهي ليست أميركيّة، ولا بغنيّة.

يرى "نعوم تشومسكي" (Noam CHOMSKY) أنَّ الولايات المتحدة آخذة في التحوّل إلى بلد من العالم الثالث، لأنّ قسماً متزايداً من سكانها يعيش في الفقر، والفقر هو أحد أشكال القسوة. من ذلك، أنَّ 15٪ من السكان ليس لهم أيُّ تأمين صحيّ، و30٪ ليس لهم تأمين صحّي مناسب، وأنَّ 33٪ أُميُون (أميّون وظيفيّاً)، وأنَّ 36٪ لم يُنهوا دراستهم الثانويّة. وفي عام 1991، كان 14.2٪ من الأميركيّين يعيشون تحت عتبة الفقر، التي حدَّدتها الحكومة الفيديراليّة، في حين أنَّهم كانوا يشكّلون 11.4٪ من الأمة عام 1978. وإنَّ هذا التوجّه يدعم تشاؤم تشومسكي. فإنَّ 43٪ من الذين لا مأوى لهم، هم عائلات[12]. وإنَّ 17٪ من المتخرّجين من المدارس الثانويّة، عاطلون عن العمل. أمّا نسبة البطالة فهي 7٪ من مجمل السكّان، و13٪ لدى الزنوج.

منذ بضع سنوات، يزداد، على نحو مرعب، عدد الذين لا مسكن لهم. وإنّ الزّائر لإحدى المدن الأميركية، لَيجدهم في كلّ مكان تقريباً، في الحدائق، في المحطات، يفترشون الأرصفة، يتسوَّلون في الشوارع، يدفعون أمامهم عربات المحلاّت الكبرى، وقد ملأوها بكلِّ ما لديهم، يرتدون ثياب الشتاء في الصيف، يفتقرون إلى ثياب في الشتاء، يتحدَّثون إلى كائنات خياليّة، يهذُون تحت تأثير المسكر أو المخدِّر. ما من أحد يعرف عددهم بدقّة. ولكن يُعتقد أنهم يقاربون الثلاثة ملايين، أيْ ما يعادل 1٪ من السكان في أميركا[13]. وإنَّ 7٪ من سكان أميركا كانوا، ذات يوم، دون سكن.

إنّ قسوة الأميركيين حيال الذين لا سكن لهم، تتّخذ ثلاثة أشكال: الأول، نقص مروِّع في الملاجئ وفي المساكن الزَّهيدة الثمن، بالنسبة إلى أكثر الناس فقراً في المجتمع. الثاني، نقص في البرامج الاجتماعيّة الملائمة، بقصد تقديم العون لمن يصارعون مشكلات الإدمان على الكحول والمخدرات، ومشكلات الأمراض العقلية. أخيراً، قسوة النّظام الاجتماعي والاقتصادي في الولايات المتحدة، الذي بات الهروب منه في الكحول والمخدّرات والأمراض العقليّة، جواباً مفهوماً.

يرى الناقد الاجتماعي "جوناثان كوزول" (Jonathan KOZOL) أنَّ السبب الرئيس في اتّساع ظاهرة التشرد، هو النَّقص في الملاجئ والمساكن التي توفِّرها الدولة. سوف نرى قريباً أنَّ هذا التفسير، على ما فيه من سطحيّة، ينطوي، على كل حال، على شيء من الصحة.

ليس ثمَّة ما يكفي من الملاجئ، وما هو موجود في حالة يُرثى لها. والاستقبال فيها من السوء بحيث يؤثر الكثير من المشرّدين البقاء في الشّارع. إليكم شهادة أحد المنتفعين بملجأ عمومي في واشنطن، يُدعى "بيرس شلتر" ( Pierce SHELTER):

"أحياناً يقف رتلٌ من خمسين رجلاً أو ستين رجلاً، ينتظرون قبولهم في

الملجأ، ويحدث أن يلتفّ الرَّتل حول البناء. ثمَّة تَدافُع واقتتالٌ بين الناس. كثيرون هم الرجال الذين يُبدون عدوانيّة كبيرةً، لأنهم مُدمنون على المخدِّرات أو المسكرات. وعندما يدخلون الملجأ، يكونون عُرضةً للسُّكْر والعنف والعدوانية، فيجعلون من الصعوبة بمكان مجرَّد الدخول إلى الملجأ، فيستبدّ الغضب بالناس. ويحمل رجال الأمن الأسلحة، وهم يترصّدون الفرصة المناسبة ليطلقوا النار على أحدهم. وقد شاهدتهم يدفعون الناسَ، وفوهة المسدّس في رأس أحدهم. وكانوا يقولون: "إيّاكم أن تتحرّكوا"، وهم يسدِّدون مسدَّساتهم نحو الجمهور. وشاهدتُ رجال الأمن ينهالون ضرباً على رجال مُسنِّين، لا قدرة لهم للدفاع عن أنفسهم. كان الأمر مُقززاً (...) معظم الرجال يحملون معهم مُبيداً للحشرات، لأنّ البراغيث والقمل والبقّ في كلّ مكان (...). وليس ثمَّة سوى حمّام واحد: هناك ستُّ مبولات من كلّ جانب، وخمس مراحيض هي دوماً مليئة بالغائط. لم أستحمّ ولا مرة واحدة في ملجأ بيرس (Pierce)، لأنَّ الحمّام كان في غاية القذارة... إنَّ الملجأ يشبه سجناً، ننعم فيه بالأمن. ورجال الأمن يحملون أسلحةً، مسدَّسات من عيار 38 "سميث" (Smith) و"فيسون" (Wessons)، وهراوات وأصفاد. وهم يتحكمون بكلِّ شيء"[14].

يجوز التساؤل كيف أنَّ الحكومة الأميركية، التي تملك من الثروة ما يمكّنها من إرسال رجل إلى القمر، والتي تنفق بسخاء عندما يتعلّق الأمر بقتل فييتناميّين أو عراقيّين، لا تملك الوسائل لإعداد ملاجئ لائقة لأفقر مواطنيها؟... إنّ إهمال الحكومة الأميركيّة على هذا الصّعيد، يزداد خطورةً، لا سيما وأنها لا توفِّر الدعم المالي إلاّ لعشرة بالمئة من الملاجئ الحاليّة، فيما تمويل سائر الملاجئ هو من شأن منظمات خيريّة، وكثيراً ما تكون منظمات كنسيّة"[15].

ثمَّة ما هو أسوأ: كثيراً ما يُرفض القبول في الملاجئ، لأكثر الناس

احتياجاً إليها: أيّ للمدمنين على الكحول والمخدِّرات، والمرضى العقليّين. وقد أظهرت دراسةٌ أُجريت في واشنطن، أنّ 68٪ من المشرَّدين حاولوا دخول أحد الملاجئ، ولكنّ معظمهم أخفق"[16].

إنّ الدولة الأميركية ورَّطت نفسها في "نهج لا نهاية له من الاختيار بين الفقراء المستحقّين، وأولئك الذين لا يستحقون"[17].

إنّ فكرة إجراء عزل وتمييز بين الفقراء الذين يستحقّون المساعدة، وأولئك الذين لا يستحقّونها، تعكس موقفاً خاصاً بالعديد من الأميركيّين، وتَصوُراً لديهم بأنّ بعض الناس فقراء لأنهم سيّئون: "إنّ المشرّدين لا يستحقّون العون، لأنّهم في جوهرهم سيّئون... ويجب إذن على المجتمع أن يتخلّى عنهم"[18].

هنا أيضاً نلحظ نزوع الأميركيين إلى التمييز بين المختارين وغير المختارين، حتى لدى أكثر الناس حرماناً في المجتمع. وإنَّ ذلك لَيذكِّرنا بكلام "جون ونثروب" (John WINTHROP) في بداية التجربة الأميركيّة، في القرن السابع عشر، إذ يقول:

"إنَّ الله الكلّيّ القدرة، في عنايته المقدَّسة والحكيمة، قد خصّ البشر، في كلّ الأزمان، بوضع يكون فيه بعضهم أغنياء، وبعضهم فقراء، بعضهم موفوري السّلطة والكرامة، وبعضهم وضيعين وخانعين"[19].

يرى كلّ من "أليس باوم" (Alice BAUM) و"دونالد بيرنز" (Donald BURNES)، أنَّه من السذاجة الاعتقاد بأنَّ مجرّد بناء ملاجئ ومساكن زهيدة الثَّمن، يستطيع حلَّ مشكلة المشرَّدين. وهما يؤكّدان أنَّ المشكلة الحقيقيّة تقوم في ما يصيب هؤلاء الناس من اضطرابات نفسيّة. وهما يلاحظان أنّ 85٪ من المشرّدين، يعانون بصورة مزمنة من الإدمان على الكحول والمخدرات، ومن الأمراض العقليّة، أو من تضافر اثنين أو ثلاثة من هذه العوامل[20]. فهم إذاً غير مؤهّلين للعيش في مسكن، حتى لو أُتيح لهم ذلك.

إنّ المشـرّدين يحتـاجون إلى بـرامج اجتماعيّـة، تهـدف إلى إعـادة تأهيلهم. وإنَّه لمن مظاهر قسوة النظام الأميركي، تخلّي الرئيس ريغن، منذ انتخابه عام 1980، عن العديد من البرامج الاجتماعيّة، الأمر الذي غمر بالفرح اليمين الأميركي. ولقد صرَّح أحد المحلِّلين النفسيّين في نيويورك:

"إنَّ الكثيرين من المرضى العقليِّين، الذين كانوا في السّابق يعالجون في مشفى "مانهاتن ستيت"، هم موجودون فيه حاليّاً بصفة مقيمين. ثَمَّة فارقٌ اليوم، وهو أنَّه لم يعد فيه لا ممرِّضات، ولا أطبّاء، ولا تطبيب أو... معالجة".[21]

ويرى أيضاً كلٌ من "باوم" (BAUM) و"بيرنز" (BURNES) أنَّ الحل الوحيد الناجع لمشكلة المشرَّدين، يقوم على برامج علاجيّة، تهدف إلى شفائهم من الإدمان على الكحول والمخدّرات، ومن الأمراض العقليّة، التي يعاني منها جميع المشرَّدين تقريباً. وهما يذكّران بأنَّ الطبقة الوسطى تستفيد الآن من مثل هذه البرامج، وهما يطالبان بتعميمها على الفقراء:

"يجب علينا جميعاً أن نتقبَّل وقائع الإدمان على الكحول والمخدّرات والأمراض العقلية (...). إنّ التزايد السريع لعدد مراكز المعالجة لمرضى الطبقة الوسطى، تشير إلى أنَّ الناس يستطيعون تقبُّل هذه الوقائع، عندما تُصيب هذه الأمراض الطبقة الوسطى. وقد آن لنا أن نتخلّى عن أحكامنا المسبقة حيال الطبقات الأخرى، وأن نقرّ بأنّ الذين يعيشون في الشوارع ويقيمون في المآوي، يستحقّون العون نفسه والعلاج نفسه"[22].

مثلما أنَّ "باوم" و"بيرنز" يجدان من السذاجة القول بأنَّ حلَّ مشكلة المشرّدين يقوم على بناء ملاجئ ومساكن زهيدة الثَّمن، فإني أجد ساذجاً اقتراحهما بأنَّ البرامج النفسيّة تستطيع أن تُشكِّل علاجاً. فما من طبيب نفسي يستطيع أنَّ يغير جذرياً النظام

الاجتماعي والاقتصادي الأميركي. فإن جميع أساليب المعالجة النفسيّة، وجميع العقاقير النفسيّة، وجميع فرق المساعدة، تفشل فشلاً ذريعاً أمام ضخامة سأم الأميركيين الروحي، هذا السّأم الذي هو نتاج تجاوزات الفردانيّة والماديّة، المتأصّلتَين في نمط الحياة الأميركيّة والرأسماليّة الأميركيّة.

إنَّ الأميركيّين، وقد باتوا، كلّ يوم، ضحايا الماديّة المنفلتة، والعنف والتنافس والنزعة الشهوانيّة لدى الأغنياء، وغياب البرامج الاجتماعيّة، والبطالة والإجرام، والتمييز والعنصريّة، هم مطالبون بأن يكونوا بشراً متفوِّقين، كي يكونوا قادرين على مقاومة الفخاخ القاتلة، التي تتمثّل في الكحول والمخدّرات والأمراض العقليّة. فإنَّ الخبراء يُجمِعون على القول بأنّ المرضى العقليّين يُشكّلون قسم السكان، الذي تفوق سرعة تكاثره، جميعَ الأقسام[23]. وتحضرنا كلمة الشاعر "عزرا باوند" (Ezra POUND)، إذ يقول:

"أميركا كلُّها هي مأوى مجانين".

كان "كارل ماركس" يقول إنَّ الاستلاب والقمع هما نتيجتان حتميّتان للرأسماليّة. وكلّما تقدَّمت الرأسماليّة الأميركيّة على الدروب المرسومة في القرن السابع عشر، عندما كان يُتحدّث عن "بقاء الأصلح"، يزداد عدد الأميركيّين من الطبقة الوسطى، الذين سينسلخون عن النظام. وقد بات من الطبيعي أكثر فأكثر، ألاّ يكون الإنسان طبيعيّاً. وإنَّ نسبةً متزايدة باضطراد من الشعب المختار، ستفقد امتيازها، وستلتحق بغير المختارين.

إنَّ قسوة المجتمع الأميركي حيال الفقراء، تُذكِّر بموقف طهرانيّي القرن السابع عشر، الذين كانوا ينظرون إلى الفقر على أنَّه علامة غضب من الله: فالشخص فقير لأنه شرّير. وقد تبنّى برلمان لندن عام 1649، قانوناً يعاقب الفقراء بالجلد بالسوط. وكان المشرّدون أيضاً

يتعرَّضون للجلد، حتى لو لم يكونوا يتسوّلون، إن وُجدوا في الطرقات، ولم يكن لهم عنوان ثابت. هذا الموقف الطُهراني في القرن السابع عشر، يُعلّق عليه "تاونيه" بقوله:

"إنَّ مجتمعاً يحترم اقتناء الثروة بوصفها السعادة القصوى، سوف يكون حتماً مُهيَّأً لاعتبار الفقراء ملعونين في الحياة الأخرى، كي يُبرّر كونه حوّل حياتهم إلى جحيم على الأرض"[24].

إنّ موقف المجتمع الطهراني الأميركي حيال فقرائه، يذكّرنا بكلمات يسوع: "كنت جائعاً ولم تُطعموني". (متى، 42/25).

صحيح أنّ لوم الحكومة على سياساتها المتعلِّقة بعقوبة الإعدام، وقصف السكّان المدنيّين بالقنابل، وفرض أشكال الحصار، أمر أسهل من لومها على فقر مواطنيها. ومع ذلك، فثمّة بلدان تجهل مثل هذا البؤس. حسبنا التفكير بالسويد وهولندا، بله ببلدان أوروبا الشرقيّة قبل انهيار الاشتراكيّة. فإن كان الأميركيّون قد استطاعوا صنع أوَّل قنبلة ذريّة، فإنه يتوجّب عليهم أن يكون لديهم التصميم على حلّ مشاكل الفقر.

إنَّ عقوبات السجن القصوى هي أيضاً إحدى خصائص الشعب الأميركي. مَنْ منَّا لم يشعر بالصدمة عام 1995، بسبب قصّة شابٍّ من كاليفورنيا حُكم عليه بالسجن مدة 25 سنة، لأنه سرق قطعةً من "البيتزا"؟ كان الأمر يتعلّق بتطبيق قانون جديد اقترحه كلينتون، وهو يُختصر بالكلمات التالية: "في المرّة الثالثة، يُقضى عليك".

وفق هذا القانون، تفرض آليّاً عقوبة 25 سنة، على كلّ إنسان يرتكب جرماً ثالثاً، أيَّة كانت طبيعة هذا الجرم. وإنّ قلّةً من الأميركيّين تساءلوا لماذا اضطّر مواطنُ بلد، هو أغنى البلدان في تاريخ العالم، لسرقة قطعة "بيتزا"، كي يبقى على قيد الحياة.

في العام نفسه، حكمت إحدى محاكم فلوريدا على شابّ أميركي، أصله من كيبك، وهو في السابعة عشرة من عمره، بالسجن مدى

الحياة، دون أيِّ أملٍ في إعتاقه. وكانت التّهمة تقوم على أنه كان شاهداً على جريمة. فطلب من القاضي، والدموع تملأ عينيه، أن يُحكم عليه بالإعدام، فرفض طلبه.

إنّ قسوة الشعب الأميركي ليست وقفاً على سياسيّي حكومته. حسبنا قراءة صحيفة أيَّة مدينة أميركيّة، لنتبيّن التفكّك المقلق، الذي يصيب المجتمع الأميركي. يبدو أنّ الأميركيّين لم يعودوا يحترم بعضهم بعضاً. وهم يرتكبون شتّى أنواع الجرائم بإيقاع مذهل.

لكي أقدّم مثالاً ليومٍ نمطي في بوسطن، وهي مدينة أسَّسها الطّهرانيّون، إليكم موجزاً لبعض المقالات من صحيفة "بوسطن غلوب"، الصادرة يوم 1993/12/29:

"رجل في الثامنة والثلاثين، كان قد أوقفَ، في حين كانت زوجته تترف، وأبناؤه يتفرَّجون، اتّهم أمس بطعنها حتى الموت".

"إنَّ "شارل كوبنيه" الابن، بعد عيد ميلاده الحادي عشر بأربعة أيّام، مات على الرصيف خارج منزل أُمِّه في روكسبيري. كان قد أُصيب برصاصة. وفي الوقت نفسه، قُتِل "كوريه غرانت"، وهو في الخامسة عشرة، بين ذراعي والده، برصاصة في صدره".

"أدلى مكتب محامي الحكومة أنَّ ممرّضة مساعدة في "مدفورد"، قد حكم عليها بسنة من الحريّة المشروطة، لأنَّها فركت بالغائط وجه رجلٍ في الخامسة والثمانين، في دارٍ للمتقاعدين، حيث كانت تعمل".

"أمس جُرِّمَ كاهنٌ كاثوليكي من "ووبورن"، لأنه أساء جنسيّاً إلى طفل من خَدَمَة الكنيسة، في الحادية عشرة من العمر، في بيت الكاهن، في شهر أيلول/ سبتمبر. ويدَّعي القضاة العامّون أنَّ الأب "بول مانينغ"، وهو في الثالثة والخمسين من العمر، قد لَمَس أعضاء الصبي التناسليّة، إذ كانا معاً في بيت الكاهن، التابع لكنيسة القدّيس شارل، مساء الأحد 9/5".

"مراهقان من "دورشستر" ورجل من "ماتابن" أصيبوا برصاص في كمين باكر جدّاً، إذ كانوا يقومون بنزهة في تقاطع طرقات في "دورشستر".

"رُفِضَ طلب استئناف دعوى رجل اتُّهم بقتل صديقته وهي حامل، إذ أطلق النار عليها في رأسها، ودفنها في قبو بيته".

"ستُعقد جلسة استماع، قبل 14 كانون الثاني/ يناير، كي يُقرَّر إذا كان يجب أن يحاكم صَبي في السادسة عشرة كإنسان بالغ، لأنَّه قتل رمياً بالرصاص، مراهقاً آخر عشية الميلاد".

"غداً سوف تخضع للمحاكمة "إلسا دوفمان"، وهي مُصوِّرة معروفة جدَّاً، بتهمة التطاول على شرطي. هذا الحادث الذي يمسّ رجال أمن من مشفى كمبردج، وقع في 29 أيلول/ سبتمبر".

"ادّعت امرأة أنَّ المحامي الذي استعانت به من أجل طلاقها، قد استغلَّها جنسيّاً، وحصلت على مبلغ قيمته 90.000 دولار، وهي ترجو الحصول على المزيد في الشهر القادم".

أكلُّ هذا الحصاد في يومٍ واحد؟!

إنَّ الأدب الأميركي في القرن العشرين هو مرآة لقسوة الشعب الأميركي. حسبنا قراءة مسرحيّين مثل "تينيسي وليامز" ( Tennessee WILLIAMS)، وشعراء مثل "ألن غينسبرغ" (Allen GINSBERG)، وروائيّين مثل "جويس كارول أوتس" (Joyce Carol OATES)، كي يتضّح الأمر. فإنَّ القسوة والعنف يتبدّيان فيه على أنَّهما نتيجتان لا مفرَّ منهما، لفردانيّة وماديّة لا حدود لهما.

إنَّ القسوة التي تستمدّ أصلها من السلوك الطهراني، ستجد ظاهراً من علاج في ممارسة أنجبها التقليد نفسه، أعني به الاعتراف العلني.

# مراجع الفصل الثالث

[1] ناين بيم Nine BAYM وآخرون: مختارات من الأدب الأميركي، نيويورك– ن. ن. نورتن Norton– 1989، ص 36.

[2] المرجع السّابق، ص 46 – 47.

[3] بيري ميلر Perry MILLER: عقل انكلترا الجديدة: القرن السابع عشر، بوسطن بيكن برس، 1961 ص 230

[4] ريتشارد ن. كورنت Richard N. CURRENT وت. هاري وليامس T. Harry WILLIAMS وفرانك فرايدل Frank FRIEDEL: تاريخ أميركي: دراسة، نيويورك، الفريدا. كنوف، 1961، ص 44.

[5] ج. هكتور سانت جون دو كريفكور J. Hector Saint-John De CREVECOEUR: رسائل من مزارع أميركي، نيويورك، ا. ب. داتن Dutton، 1957، ص 167–168.

[6] هوارد زِن Howard ZINN: تاريخ شعب الولايات المتحدة، نيويورك، هارب، 1980، ص 249.

[7] ميرا ماكفرسون Myra MACPHERSON: زمن طويل راهن: فييتنام والجيل المسكون، نيويورك، دبلديه، 1984، ص 495.

[8] المرجع السابق: ص 495–496.

[9] المرجع السابق: ص 500.

[10] المرجع السابق: ص 497.

[11] مجلة التايمز: 21 آذار / مارس، 1994، ص 40.

[12] صحيفة ذا بوسطن غلوب: 11 كانون الأول/ ديسمبر 1993.

[13] "أليس باوم" دونالد برنز": "أمة في ضياع: الحقيقة حول المشردين"، بولدر، وستفيو بريس، عام 1993، ص 120.

[14] المرجع السابق: ص 57–62

[15] المرجع السابق: ص76.

[16] المرجع السابق: ص 169.

[17] المرجع السابق: ص 87.

[18] المرجع السابق: ص 172.

[19] ناين بيم وآخرون: المرجع المذكور، ص 22.

[20] أليس باوم: المرجع المذكور، ص 3.

[21] المرجع السابق: ص 23.

[22] المرجع السابق: ص 187.

[23] المرجع السابق: ص (38).

[24] ر. هـــ. تاونيه R.H.TAWNEY (الدين ونشوء الرأسمالية)، نيويورك، منتون، MENTON 1954، ص 222.

# الفصل الرابع

## الاعتراف العلني

"إرفع الصوت قوياً
ارفعه، ولا تخشَ شيئاً
قُل لِمُدن يهوذا
هوذا إلهكم".

أشعيا 9/40

إنَّ ندوات التلفزيون الأميركي، ومثلها فرق الدعم التي تتصدّى لشتى أشكال البؤس، تنحدر من تقليد الاعتراف العلني، الذي يعود إلى القرن السابع عشر.

فالطّهرانيّون لم يكن يُتاح لهم، مثل الكاثوليك، الاعتراف الشخصي للكاهن المُعرِّف. فكان إذن الاعتراف العلني هو السبيل الوحيد للتحرّر من الشعور بالذنب.

وكان الاعتراف أيضاً في الغالب إعلاناً للإيمان: إذ كان المؤمن يعلن أمام الملأ، أنَّه نال الروح القدس، وأنَّ "تجدّده" بات مؤكّداً، وأنَّه باتَ جزءاً من الشعب المختار. إنَّ هذا الوجه من التقليد الطُّهرانيّ، أعني به الاعتراف العلني، يتواصل اليوم في تظاهرات "المسيحيّين المتجدِّدين".

كان الاعتراف العلني لدى الطُّهرانيّين، يتّخذ أمثالاً متعدّدة. وكان من الطبيعي أنَّ يدوّن الطُّهرانيّ يومياته. وقد فسَّر "ماكس فيبر" (Max WEBER) ذلك بقوله: "لا شكَّ أنَّ عادة تدوين يوميّات دينيّة، تُذكَر فيها

تباعاً الخطايا والتجارب والتقدُّم على طريق النعمة، أو تسجّل في شكل لوحات، كانت شيئاً مألوفاً في أكثر أوساط المصلحين حرارةً"[1].

كان الطُهرانيّون في معظمهم مثقَّفين. وكانَ قسمٌ كبير منهم قد درسَ في جامعة كامبريدج، وفي ما بعد في جامعة هارفارد. وكانوا يملكون أقلاماً طيّعة. وكان فنُّ الكتابة يندرج في نطاق الممارسة الدينيّة، لا سيما إذا كان المؤمن يقرُّ بخطاياه، أو إذا كان يروي ما يحدث له من انخطافات روحيّة. وقد حُفِظت يوميات الطُهرانيِّين في محفوظات مكتبات "إنجلترا الجديدة"، ومنها مكتبة جامعة هارفارد. وهي إذن في متناول الجمهور، دون موافقة المؤلف، كما هي حال "يوميّات شخصيّة" لكاتبها "جوناثان إدواردس" ( Jonathan EDWARDS). بالمقابل، كانت بعض اليوميّات معدّة للنشر. تلك كانت، مثلاً، سيرة "توماس شيفرد" (Thomas SHEPHERD) الذاتيّة.

كان بوسع الاعترافات أيضاً أن تَتَّخِذ قالباً شعريّاً. كان أكثر الشعراء شهرة في بدايات "انجلترا الجديدة"، "آن برادستريت" ( Anne BRADSTREET) و"إدوارد تايلور" (Edward TAYLOR). وكانت قصائدهما تتحدّث خصوصاً عن الأزمات الروحيّة، التي يعانيها الحجّاج المسيحيّون في صراعهم من أجل خلاص نفوسهم. لم تكن "آن برادستريت" تنوي نشر شعرها، إلا أنَّ صهرها نشره في انجلترا، في غفلة منها.

كان الاعتراف أيضاً يجري أحياناً داخل الكنيسة، إذ كان التائب إمّا يتكلّم بنفسه، وإمّا يدع القسِّيس يتلو كلمات توبته. هذا الشكل الأخير من الاعتراف هو الذي استخدمه "صموئيل سيوال" ( Samuel SEWALL) (1652–1730)، عندما أعلن توبته لتولِّيه محاكمة "ساحرات سالم" مع قضاة آخرين.

لندقّق إذن في بعض التعابير الهامّة، التي نطق بها أجدادي الطُهرانيّون، كي نرى المدى الذي كان ضميرهم يؤنّبهم فيه. فإنَّ

"توماس شيفرد" (Thomas SHEPHERD) (1605–1649) مثلاً، يصف هكذا ما ألِف أن يعيشه في نهاية الأسبوع من حياته الطلابيّة في جامعة "هارفارد"، على هذا النحو:

"ذات يوم أكثرتُ من الشرب، بحيث أصبحتُ ثملاً بالكليّة. كان ذلك مساء يوم سبت. فَحُملت من المكان الذي شربت وأكلت فيه، إلى غرفة أحد الطلاب، واسمه "باسيه" من "كريست كولدج". وعندما استيقظت صباح الأحد، لم أكن أدري أين كنت، وكنت مشمئزّاً من غباوتي"[2].

تحتوي يوميّات "صموئيل سيوال" (Samuel SEWALL) كلمات الندم التالية: "نظراً لعدم أهليّتي وافتقاري إلى النعمة [..]، قرّرت أن أعلن كم أنا خاطئ بائس [..] أريد أنْ أتقبّل اللوم وعار محاكم الساحرات، كي أطلب الصفح من البشر، وخصوصاً الصلوات من الله"[3].

إنَّ شعر "إدوارد تايلور" (Edward TAYLOR) (1642– 1729) يكشف عن ثقل شعوره بالخطيئة:

"استوجب أنَّ يُقذَف بي من نور السماء الرقيق إلى نيران جهنَّم المتَّقدة. إنَّ قضيّتي خاسرة، سيّدي، كنْ أنت المحامي عنّي. خطيئتي تحرقني. إنَّ الله قد أصدر أمراً بتوقيفي. "قذر، قذر أنا، ربّي، أنا ضائع، لا قيمة لي. ملوّثٌ أنا بالكلية، فما عساني أفعل، أنا خادمك؟"[4].

تصادفنا أفكار مماثلة في شعر "آن برادستريت" ( Anne BRADSTREET) (1612– 1672):

"أنا، الحاجّة المخزية على وجه الأرض.
تتأكّلني الخطايا، والهموم والآلام".

"إنّي أستحقّ البغض، وفقاً لجميع الألسنة السيّئة التي تقول إنَّه خيرٌ لي أنْ تكون في يدي إبرة من أنْ أمسك بقلم"[5].

كان التشهير العلني بالخاطئ، شكلاً آخر من أشكال الاعتراف العلني

لدى طهرانيّي القرن السابع عشر. وكان هذا الأسلوب يشكّل أكثر العقوبات انتشاراً، إزاء جميع أشكال الجرائم والمخالفات. وكان المذنب يُعرض أمام الجمهور، وتكتب طبيعة جرمه في أسفل العمود الذي ينتصب أمامه.

إنَّ الاعتراف العلني يشكّل إذن، منذ البدء، جزءاً لا يتجزّأ من السلوك الأميركي. وإنَّ أبرز مثال على ذلك في القرن العشرين، هو "النزعة الماكارتية" في الخمسينيّات، التي تندرج اندراجاً تامّاً في تقليد مطاردة "ساحرات سالم". فإنَّ عضو مجلس الشيوخ "جوزيف ماكارتي" (Joseph McCARTHY) وأتباعه، اتّهَموا مئات الأميركيّين بأنَّهم إمّا شيوعيّون، وإما يساريّون. وكان مجرّد الانتماء إلى تنظيم اتُّهم فيه فردٌ واحدٌ بالشيوعيّة، يكفي ليدمِّر سمعة أشخاص لا علاقة لهم بالسياسة البتّة. وقد أفرزت الهستيريا الوطنيّة مشاهد محزنة من الاعتراف العلني، أمام كونغرس الولايات المتحدة. ودُمِّرت حياة آلاف الناس باسم مقاومة الشيوعيّة الملحدة.

اليوم يتّخذ الاعتراف العلني أسلوباً مسرحيّاً في الندوات التلفزيونيّة. فهوذا إنسان مغمور حتى الآن، يبوح بأكثر أسراره حميميّة أمام الأمّة الأميركيّة بأسرها. يطرح عليه المذيع السؤال التالي:

"هل لك أنَّ تصف لنا انفعالاتك، في اللحظة التي مارست فيها الجنس لأول مرة مع طفلتك، وهي في الثالثة من العمر؟"

ويأتي الجواب ساذجاً!

إنَّ فعل الاعتراف العلني يُفقد بعض الشيء الشعور بالذنب، حيالَ ما يفعله المرء في السرّ.

ثمّة مثال آخر:

يسأل المذيع عدداً من النساء، لماذا اتّهمنَ طبيبهنّ باستغلالهنّ جنسيّاً. فيعطين أجوبة دقيقة ومفصّلة. ثم تأتي المقابلة مع المجرم القابع في السجن. وهو بدوره يُدلي بصيغته للوقائع دون أيّ خجل.

ثـمّ هـا هـي ذي امـرأة فتيّـة، جميلـة المنظـر، تفصـح للأميركـيّين، بواسـطة التلفزيـون الـوطني، عـن الأحاسـيس الـتي اسـتولت عليهـا، عندما قطعت قضيب زوجها بسكين المطبخ. وليس في هذا الاعتراف ما يكفي. فتتابع وتشرح حالاتها النفسيّة، لحظة ألقت بقضيب زوجها في الحقـل. وانطلاقـاً مـن النـهج نفسـه، حـقّ للأميركـيّين، في 8 آذار (مـارس) عـام 1994، أن يشـاهدوا علـى محطـة (NBC) مقابلـة مـع "جوفروا دهمر" (Jeoffroy DAHMER) الذي قتل 17 صبياً في ملووكي (Milwaukee)، كان هو أيضاً قد خَصى عدداً من ضحاياه، وأكل بعض القضبان. وكان المذيع هو الذي يطرح أكثر الموضوعات إثارةً للتقزّز:

"هـل شـعرت بإثـارة جنسـيّة لحظـة قطعـت القضـيب؟" إنَّـه يطـرح السؤال بالسذاجة إيّاها التي تفسّر جاذبيّة الأميركيّين. ثمّة سؤال آخر: "لِمَ أكلُ لحمِ البشر؟".

في اليـوم عينـه، كنـتُ قـد قـرأت في مجلـة: "الأحـداث الراهنـة" (L'ACTUALITE) هـذه الكلمـات "لجـون كينـث غالبريـت" ( John Kenneth GALBRAITH):

"ما من بلد في العالم يستطيع منافسة الولايات المتحدة، من حيث إنتاج برامج تلفزيونيّة منحرفة أخلاقيّاً"[6].

إنَّ الأميركـيّين يفقـدون الإحسـاس بالفـارق القـائم بـين الحيـاة الخاصة والحياة العامة: لم يعد ثمّة من وجود للحياة الخاصة. أقصد مخزناً في الولايات المتحدة، فيسألني المستخدم: "كيف حالك؟" هل هو يعرفني؟ إنه يطرح على غريب، السؤال إيّاه الذي يمكنه أن يطرحه على أفضل أصدقائه.

عندما ذهبت إلى "هارفارد" في حزيران (يونيو) عام 1993، تبيَّن لي أنَّ الأميركيين يتساءلون فيما بينهم، حتى في ما بين الغرباء، ما هو تـوجُّهُهُمْ الجنسـي، وأنَّـه يسـعهم أنَّ يقولـوا: "هـل أنـتَ لـوطي؟"،

بالسهولة نفسها تقريباً التي يسألون بها: "من أين أنت قادم؟". إنَّ وضعاً كهذا يذكِّرني بأميركيّة سألتني يوماً دون مقدّمات: "كم تربح؟". وفي كلَّ مرة، ينتابني الشعور نفسه، أي أنَّي أشعر بالغربة. فمثل هذا السلوك غير موجود في "كيبك"!...

في شهر أيار (مايو) من عام 1995، استمعت إلى عظة في إحدى كنائس "إنجلترا الجديدة". كانت العظة حول موضوع "المرض العقلي والخجل". فذكرت المرأة القسِّيسة، في بساطة، قائمة طويلة جداً من أهلها الذين كانوا يعانون أمراضاً عقليّة، منهم: عمّتها "أليس" وهي مصابة بانفصام، وابنتها "ماري" التي تستبدّ بها فكرة الانتحار، وخالها "جون" وهو مدمن كحولي، ونسيبها "بيل" الذي يمارس الجنس مع حيوانات. وكانت تلك طريقتها للدلالة على أنَّه لا يجوز الخجل من المرض العقلي. كان أسلوبها دون شكّ، على قدر كبير من الشجاعة والتجديد، ولكني، في الوقت نفسه، كنت أقول في نفسي إنَّ مثل هذا الخطاب غير معقول خارج الولايات المتحدة. وهو مثال نموذجي للتقليد المتّبع في الاعتراف العلني.

إنَّ "الظهور أمام الملأ" (Coming out) للمثليّين الجنسيّين (Homosexuels)[7] الأميركيّين، ينتمي إلى التقليد الطُهراني في الاعتراف العلني، من نمط "الإعلان عن الإيمان". إنَّه ينطوي على شجاعة وإثبات للذات، ويمثّل محاولة من أجل تقبّل التوجّه الشخصي على الساحة العامة. وإنَّ هذه المبادرة تنكر صراحة، بطريقة ما، على التوجّه الجنسي، أن يكون سبباً في إقصاء "المثلي الجنسي" من الشعب المختار. إنَّه مطالبة بالكرامة الأساسيّة، وبحقّ الفرد في التصرف بحياته الشخصيّة وفق هواه.

هناك دراسات سيكولوجيّة توحي بأنَّ قبول "المثليّة الجنسيّة" وانتشارها، يدعمان الصحة العقليّة. فتصرِّح العالمة النفسيّة "ليندا غارنتس" (Linda GARNETS):

"إنَّ التلاؤم النفسي يبدو أفضل حالاً لدى الرجال والنساء، الـذين يتقبّلون هويّتهم من حيث "المثليّة الجنسيّة"، والذين لا يخفون "مثليّتـهم الجنسيّة" عن الآخرين [...] إنَّ الذين لديهم توجّهاً "جنسيّاً مثليّـاً"، ولكنّهم لا يقبلونه، ويشعرون بضرورة قمع رغباتهم "الجنسيّة المثليّـة"، يرغبون في التعامل مع الجنس الآخر، وإنّ الذين ينعزلون عن جماعة من "الجنسيّين المثليّين"، هؤلاء قد يعانون ضيقاً نفسيّاً بالغ الشـدة، حـتى فَقدِهم احترامَهم لأنفسهم"[8].

اعتبرت الجمعيّة الأميركيّة للأطبّاء النفسيّين حتى عام 1972، "المثليّة الجنسيّة"، بمثابة مرض عقلي. كان إذن الطب النفسي يؤكّد الأحكام المسبقة الملازمة للطُهرانيَّة الأميركيّة حيالَ "المثليّة الجنسيّة". ولا بدّ من الاعتراف بأنَّ العديد من الأميركيّين كانوا ضحايا الأطبّاء النفسيّين، الذين حاولوا أنَّ يشفوهم من توجّههم "الجنسي المثلي". وإذ بالكثير منهم، بدل أنَّ يتحوَّلوا إلى الجنس الآخر، بعد خضوعهم للمعالجة النفسيّة، يصبحون ذُهانيِّين أو ينتحرون. لقد كان كلُّ ذلك أشبه بمطاردة حقيقيّة للساحرات، وفق التقليد الذي اتّبع في مدينة "سالم" في القرن السابع عشر.

إنَّ تعبير "الظهور أمام الملأ" (Coming Out) يحيل إلى واحد من أحداث الحياة الاجتماعيّة في العائلات الأميركيّة الغنيّة، وبتحديد أدقّ إلى ظهور الفتاة لأوّل مرة في مجالات الحياة العامة. وينطوي هذا التعبير على دلالات كثيرة بالنسبة إلى "الجنسيّين المثليّين". فإنَّه يحيل أوّلاً إلى قبول الإنسان "المثلي الجنسي" لذاته بما هو عليه. فهو يعترف بأنَّه "جنسي مثلي". والمرحلة التالية هي مرحلة تحقيق الرغبات "الجنسيّة المثليّة" في الفعل الجسدي. ويعقب ذلك كشفه لحقيقته الجنسيّة أمام والديه وأصدقائه وزملائه والجمهور عامّة. فإنَّ درجة "الظهور أمام الملأ" تختلف إذن بين فرد وآخر[9].

فالذين يعرفون أنَّهم "مثليّون جنسيّون"، ولكنهم يخفونه، يعيشون، كما يقال، في صندوق. أن يعي الإنسان "جنسيّته المثليّة" ويقبلها، أمر لا علاقة له بالتقليد الطُهراني في الاعتراف العلني، لأنه قائم في جميع الثقافات وجميع عصور التاريخ. بل يسعنا اكتشاف التعبير عن عواطف "مثليّة جنسيّة" في العهد القديم، حيث يقول داود في يوناتان[10]: "لقد كنتَ عزيزاً جداً عليّ، وكان حبّك عندي أشهى من حب النساء"[11].

ومع ذلك، فما هو جديد في الولايات المتحدة، وهو، في الوقت نفسه، أثر من آثار التقليد الطُهرانيّ في الاعتراف العلني، هو بالضبط واقع الكشف عن "الجنسيّة المثليّة" أمام الآخرين. فإنّ هذه الظاهرة هي أمريكيّة في العمق، حتى إنَّه ليس ثمّة، في أية لغة أخرى، تعبير متداول يعادل التعبير الأميركي: "الظهور أمام الملأ". صحيح أنَّ "الجنسيّين المثليّين" في الأمم الأخرى، يكشفون أيضاً عن "جنسيّتهم المثليّة" (حسبنا الإشارة إلى "أندريه جيد" (Andre GIDE)، وهو أوّل كاتب أوربي كشف عن "جنسيّته المثليّة")، ولكنّهم أبعد من أنْ يجاروا الأمريكيّين اليوم على هذا الصعيد.

إنَّ "المثليّين الجنسيّين"، من منشأ غير طُهراني (أو أوروبي)، يميلون أقلّ من سواهم بكثير، حتى داخل المجتمع الأميركي، إلى الكشف عن حياتهم الجنسيّة هذه. وهناك دراسات تظهر:

"أنَّه لوحظت مستويات متدنيّة نسبياً، من مصارحة الأهل لدى اللوطيّين والسحاقيّات، من منشأ آسيوي وإفريقي– أميركي، ولاتيني– أميركي"[12].

وقد لوحظ الأمر نفسه لدى سكّان أميركا الأصليّين:

"إنَّ سكّان أميركا الأصليّين اليوم يقولون إنَّهم يتعرّضون لإدانة بالغة، ويَلقَون عنتاً شديداً في الكشف عن "مثليّتهم الجنسيّة"[13].

إنَّ أشكال التفاوت بين الجماعات العرقيّة، في ما يتعلّق بالرغبة في الاعتراف الصريح "بالمثليّة الجنسيّة"، تؤكّد الفرضيّة القائلة بأنَّ

**الاعتراف العلني هو أحد آثار الطُهرانيّة، وأنّ الظهور أمام الملأ "للمثليّين الجنسيّين"، هو أثر آخر من آثارها.**

**وهو يقوم على الكشف القسري، من قبل شخص معروف لدى الجمهور، عن هوية "مثليّته الجنسيّة". إنَّه شكل من أشكال الاعتراف العلني القسري، وفق تقليد "الإدانة العلنيّة أمام الملأ"** (La Tradition Du Pilori).

**إنَّ مَن يسمع حديث الأميركيّين النمطيّين، يُخيّل إليه أنَّهم يؤلّفون أمّة، هي الوحيدة في العالم التي لا يمارس أحد فيها الجنس بدافع الحب. فالجنس هو للأميركيّين مثل ما هو الحزب أو سيّارة جديدة. فليس هناك من يقول إنَّه "يمارس الجنس بدافع الحب"، لأنَّ العواطف الغرامية في الغالب هي على الأرجح غائبة.**

**لقد "شيَّؤوا" بالكليّة البشريّة برمّتها.**

**إنَّ جماعات الدعم المختلفة، التي تنشأ اليوم في الولايات المتحدة، تشكّل مظهراً آخر من مظاهر التقليد الطُهرانيّ، على صعيد الاعتراف العلني. فإن تألم أحد من مشكلة نفسيّة ما، فهو يتوجّه لجماعة الدعم المتخصّصة. وهنا يتسنّى له أن يقول ما يشاء ولمن يشاء، وأن يتقبّل كلَّ الإشفاق الذي يحتاج إليه. ففي كلَّ مدينة أمريكيّة، يقوم فيض من جماعات الدعم: ثمّة جماعات للكحوليّين، وللمدمنين على المخدّرات، وللذين يسيئون جنسيّاً إلى الأطفال، ولضحايا الاستغلال الجنسي، وللذين يضربون نساءهم، وللنساء ضحايا العنف، و"للجنسيّين المثليّين"، ولزواج السحاقيّات، ولذوي الميول السادية - الماسوشية، ولأهل الطلاب الفارّين من المدارس، ولأبناء الأهل الخاضعين لعلاج طبّي نفسي، ولذوي النزعات الانتحارية، الخ...**

**إنَّ ما يجهله الجميع هو أنَّ هذا الشكل من العلاج، يدخل في نطاق التقليد الطُهرانيّ، مثله تماماً مثل تجاوزات الفردانيّة، التي هي مسؤولة عن الشقاء العام الذي يحلّ بالأمّة الأميركيّة.**

# مراجع الفصل الرابع

[1] ماكس فيبر: "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، باريس – بلون (Plon) – 1964– ص 155.

[2] بيري ميلر: "الطهرانيون الأميركيون : نشرهم وشعرهم" – نيويورك– انكوربركس– 1956– ص227 .

[3] ناين بيم وآخرون: "مختارات من الأدب الأميركي" – نيويورك– ف.ف. نورتن (Norton) 1989– ص 101–102.

[4] المرجع ذاته: ص 91–96 .

[5] المرجع ذاته: ص 51 .

[6] مجلة "الأحداث الراهنة" (L' ACTUALITE) – 15 آذار (مارس) 1994 – ص 13.

[7] آثرت استخدام هذه العبارة على أي مصطلح آخر، حيث تكون كلمة Homosexuel ومشتقاتها، عامة. أما عندما يكون المعني ذكراً أو أنثى، فاستخدم كلمتي "لوطي" و "سحاقية" (المترجم) .

[8] ليندا غارنتس و دوغلاس كميل: "آفاق سيكولوجية حول تجارب السحاق واللواطة" نيويورك– كولومبيا– يونيفيرستي بريس 1993– ص 582– 583.

[9] ليندا غارنتس ص 195.

[10] يوناتان هو صديق داود، المعروف باسم داود النبي، ابن الملك شاول (المترجم).

[11] سفر صموئيل الثاني 26/1.

[12] المرجع ذاته – ص 333

[13] المرجع ذاته – ص 19

# الفصل الخامس

## شهادة جويس كارول اوتس

**"ها إنَّ الأمم**
**تشبه نقطة من دَلوٍ**
**وحبّة تراب في ميزان"**
**أشعيا** 15/40

**إنَّ روايات جويس كارول أوتس** (Joyce Carol OATES) **تشهد على وجود الآثار الأربعة للعقليّة الطّهرانيّة، التي عرضتها في سلوك الأميركيّين، في نهاية الألفيّة الثانية.**

**إنَّ الفردانيّة المنغلقة دونما حدود، تُحدث تجاوزاتٍ في العنف والقسوة، تسم المجتمع الأميركي اليوم. يمكن اعتبار مؤلفات "أوتس" بمثابة محكمة، تحاكم وتدين المجتمع الأميركي، لمخالفاته التي لا تُحصى. وإنَّ الروائيّة لتؤكّد تشاؤمي الشخصي. ففي روايات "أوتس"، تبرز عيوب الإرث الطهراني أكثر من فضائله. حتى لو سلّمنا بأنَّ نجاح الولايات المتحدة على صعيد الاقتصاد العالمي، يعود إلى هذه الفضائل، فإنَّه يبقى أنَّ العيوب هي، دون أدنى شك، مسؤولة عن انحطاط البلد العام. سوف أدرس أربعاً من رواياتها الحديثة، كي أُبيِّن فيها مظاهر الذهنيّة الأميركيّة كما وصفتها.**

**إنَّ رواية "شهوات أميركية"** (1990) **تبدأ بوصف الثنائيّة التي تفصل المختارين عن غير المختارين، وتنتهي بخاتمة باتت ممكنة، بواسطة**

اعـتراف علـنيّ. فـإنَّ "يـان مكّلّـوغ" وزوجتـه "كلينـيس" ينتميـان إلى المختـارين: فحياتهمـا البورجوازيّـة سـجّلت نجاحـاً، وهمـا غنيّـان، لأنّ "يان" رجل خبير، وزوجته تؤلّف كتباً تحقّق رواجاً كبيراً. بالمقابل، فإنّ "سـيغريد هانـت" امـرأة غـير مختـارة، لأنّهـا فقـيرة، تقطـن في مدينـة الصفائح، في الجانب السيّئ من الطريق. فالمدن الأميركيّة تُقسم على هـذا النحـو: المختـارون يسـكنون في الجانـب الصـالح مـن خـط القطـار الحديدي، وغير المختـارين في الجانـب الآخـر. هـذا الفصـل، تعبّـر عنـه "أوتس" على النحو التالي:

"أخيراً، ثمة فريقان اجتماعيان في مجتمعاتنا، كما كانـت الحـال في العصر الروماني، حيث كان يتواجد المواطنـون الرومـانيّون، وغـير الرومانيِّين: أولئك الذين كُتِبَ اسمهم وعنوانهم ورقم هاتفهم بعنايـة في سجل العناوين، وأولئك الذين خربش اسمهم وعنوانهم ورقم هـاتفهم، على أوراق صغيرة، دُسّت بصورة مؤقتة في دفاتر العناوين".

كان عنوان "سيغريد هانت" قد خربش بسرعة على ورقة صغيرة[1].

"غلينيس" ترتاب في خيانة زوجها لها مع "سيغريد". وفي مشهد، هو بمنتهى القسوة، تأخذ عليه عجزه الجنسي الدائم، وتتّهمه بتدمير علاقتهما مع ابنتهما، وتعترف له بوجود عشّاق لها، وتقرّ له بحبّها الـدائم لأحـدهم، وهـي تـرفض البـوح باسمـه، فتـثير صـراعاً عنيفـاً سيسبِّب مصرعها. وتطول محاكمة "يان"، وتتعقّد، خصوصاً بسبب غياب "سيغريد"، ورفض "يان" القيام باعتراف علني. وتعود "سيغريد" إلى الظهور، بعد فترة غياب طويلة، وتعترف أمام المحكمة، الأمر الذي يدفع "يان" للاعتراف بدوره، فتبرّأ ساحته، ويصبح الاثنان أخيراً عاشقين. فيُسرّ "يان" إذن بوفاة "غلينيس"، و"سيغريد" تدخل في عداد الشعب المختار.

إنَّ "إيريس" هي بطلة رواية عنوانها: "لأن ذلك هو الأفضل، ولأنه قلبي" (1990). تضطر "إيريس" لمواجهة فريقين من غير المختارين، أي زنوج وبيض فقراء (إنّهم حطام أبيض)، قبل أن ينقذها زواجها من شاب ينتمي إلى عائلة من المختارين.

وشاءت سخرية القدر أن يحمل أعضاء هذه العائلة الغنية اسم "سافاج" (أي المتوحشون)، ذلك لأنهم ليسوا بعنيفين ولا برابرة.

في هذه العائلة النمطيّة من البيض الفقراء، عائلة "غارلوك"، يسود الإدمان على الكحول، ويسود العنف والبؤس المطلق. فإنّ منازلهم هي "هديّة الفقر الأزليّة، فثمّة خضمّ من حطام تغوص فيه أقدام "برسيا"، ودفق من روائح: روائح الشحم والعصير، وحليب الطفل، وتقيّؤات الطفل، وغائط الطفل، ورائحة "غارلوك" الكريهة في الخشب، والورق الملوّن، وحتى في أساسات البيوت"[2].

ليس بوسع رجل سياسي أبيض أن يكون موقفه من الزُنوج أكثر وضوحاً:

"يجب أنَّ نُبقي هذا البلد بلداً للرجل الأبيض، مهما حدث [...] إنَّه المبدأ المقدّس الذي أرساه أجدادُنا. إنَّ البيض هم الذين أسّسوا الجمهورية [...]. إنَّ نقيض النقاء هو التهجين"[3].

تجد "إيريس" نفسها مضطرّة لطلب النجدة من شاب زنجي، عندما يطاردها أبيض فقير، يتعقّبها وهو يصرخ: "هه! يا صاحبة الثديين، هل تريدين أنَّ تمصّي...؟"[4]. وإنّ لقاءها بالزنجي يحدث في حياتها تبدّلاً دائماً. وهما يحتفظان طوال حياتهما، في سرّيّة دائمة، بمخالفتين اثنتين: الأولى هي حبّهما، والثانية هي ارتكابها جريمة قتل (وهي واحدة من 24.000 جريمة قتل تُرتكب كلَّ عام في الولايات المتحدة).

لا يكتمل كتاب لـ "أوتس" إلا بمشاهد قسوة وعنف، تماماً كما هي الحال كلَّ يوم في الولايات المتحدة. وإليكم هذا المثال:

"طُعن اثنتي عشرة طعنةً سطحيّةً، ودُفع عارياً في حوض الحمام، صُبّ عليه بضعة غالونات من الماء الساخن، حتى احترق جلدُه واكتسى بفقاعات، ثم تفجّر الجلد وانسلخ عن لحمه. كان لا يزال على قيد الحياة، فسخر منه قَتَلَتُهُ، وهم يبوّلون عليه"[5].

من ناحية أخرى، تُبرز "أوتس" مشكلةً خطيرةً في الولايات المتحدة، هي مشكلة الأمّيّة، لا سيّما لدى أولئك الذين حصّلوا شهاداتٍ من مدارس ثانويّة (تلك هي الأمّية الوظيفيّة). ويرى "جوناثان كوزول" (KOZOL) أنَّ ثلث البالغين الأميركيّين هم أمّيّون، وأنّ 15٪ من ذوي شهادات المدارس الثانويّة، يتمتّعون بمستوى تعليمي يوازي مستوى المدارس الابتدائيّة[6]. وتشهد رواية "أوتس" على هذه الظاهرة:

"يقول "بوبو" إنَّه سجّل اسمه في دورةٍ لتصليح الراديو والأدوات الالكترونيّة. إنَّها مهنة مفيدة، أليس كذلك؟ وهو يتعلّم أيضاً القراءة والكتابة... لَكَأنّي ببوبو قد بلغ سنّ التاسعة دون أن يكون قد تعلّم لا القراءة ولا الكتابة. من الواضح أنَّه لم يُرغم على تعلّم أيّ شيء في المدرسة، بل تركوه ينتقل ببساطة من عام لآخر"[7].

ثمّة مشكلة أخرى خطيرة في المجتمع الأميركي، تواجهها الروائيّة: غياب الضمان الطبّي لدى 15٪ من السكان. تموت والدة البطلة، فتضطرّ هذه لدفع (8000) دولار لتغطية كلفة الطبابة. إنَّه الثمن الذي يتحتّم دفعه، كي يكون الإنسان من فئة الأرقّاء. وإنّ الإنسان ليستحقّ هذه العقوبة، لأنَّه لا ينتمي إلى المختارين.

في روايتها "ظهور الحياة على الأرض" (1991)، تتناول "أوتس" موضوع القسوة الأميركيّة، حيالَ الشعوب غير المختارة، سواء كانت

قسوة الرجال حيالَ النساء، أو قسوة البورجوازيّين حيالَ الكادحين. فإنَّ البطلة "كاتلين هنيسي"، وهي في الثانية عشرة، تتعرّض للضرب من قبل والدها السكّير، وإنّ هيجانَه الأعمى سيسبّب موت شقيقة "كاثلين" الصغرى. والقاتل، الذي يمثّل نموذجاً ممتازاً لعقليّة الرجل الأميركي، يلوم زوجته، "الأم القذرة"[8]، لأنها هي التي فجّرت الأسرة "بالمشاكل التي أحدثتها"[9].

وتُنقل "كاثلين" من ميتم لآخر. فتُحقِّق حلمها وتصبح ممرّضة مساعدة. وتكتشف في المشفى، الطريقة التي يستخدمها الأطبّاء الأميركيّون، لإغراء النساء. فالممارسة الجنسيّة عنيفة، قاسية. والمرأة هي ضحيّة الرجل. ويعطي الطبيب الشاب "أورسن" أوامر لكاثلين: "مصّيني بحق السماء... إلى العمل[10]!". وعندما يبلغ ذروة النشوة، يصرخ: " خـ... آه... خـ..."[11]، وهو يقذف ملوّثاً أجمل تنّورة لكاثلين. "كانت الممارسة الجنسيّة بالغة الوحشيّة"[12]... وحَمَلَت كاثلين، فتخلّى عنها عاشقها: "فإنّ كاثلين لم تعد موجودة بالنسبة إليه"[13]. وهي تعرّض حياتها للخطر، إذ حاولت أنَّ تجهض نفسها مستعينةً بسكين.

ثمّة مفارقة، وهي أنَّ "أورسن" ظلّ لا مبالياً حيالَ فعله في استغلال امرأة، في حين أنّه يتحسّر على استغلال الأغنياء للفقراء، هذا الاستغلال الذي يشكّل جوهر أساس النظام الاجتماعي والاقتصادي الأميركي.

"ضحك "أورسن آبرت" مرة أخرى وتنهّد. ما عاد يشعر الآن بالاحتقار، بل بالأحرى باستسلام كئيب. كان يحدّق في تلك المرأة الفتيّة، ذات الخدّين المحمرّتين والعينين البرّاقتين، التي كانت تعمل بأجر يتجاوز بخمسة عشر سنتاً، الأجر الأدنى الذي أقرّه كونغرس الولايات المتحدة منذ بضع سنوات، والذي كان دون المطلوب آنذاك. تلك هي أبداً حالة المستَغَلّين، وهم الطبقة الدنيا في أميركا الإمبرياليّة.

فهناك آلاف من الشبّان يُرسَلون دون إعداد، كالقطيع، ليُقْتَلُوا في الحرب المجنونة في فييتنام، كي يُتاح لبعض الشبّان المحظوظين، مثل "أرسون أبوت"، أن يحافظوا على حياتهم ويواصلوا عملهم"[14].

نرى مرّة أخرى أنَّ القسوة الأميركيّة ذات بُعدٍ واحد: فالذين يمارسونها هم الأغنياء، فيما الضعفاء هم ضحاياها. فالأقوياء هم مختارو الله، والفقراء هم غير المختارين.

تروي رواية "ماء أسود" (1992) قصة امرأة فتيّة تقوم بعمل مراسل، وقد كتبت مقالاً حول عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة، فيما هي تعلّم مجاناً الأميّين البالغين في بوسطن. ("في بوسطن، في ولاية ماساشوستس، 40٪ من السكان البالغين، أمّيّون"[15]، على الرغم من وجود قرابة ثلاثين جامعة في منطقة "بوسطن"). وكتبت أطروحتها حول أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وقد قُيّض لها في ما بعد، التعرّف عليه، بمناسبة عيد أُقيم في 4 تموز (يوليو)، وأثارت رغبته الجنسيّة، وقُتلت في حادث سيارة، كان هذا الرجل مسؤولاً عنه، لأنّه قاد سيارته وهو في حالة سكر، بسرعة فائقة، على طريق بجوار نهر.

وغاصت السيّارة في المياه السوداء، واستطاع الرجل أن يتدبّر أمره، فنجا دون أذى يذكر، وأبدى قلقاً من تأثير هذا الحادث على مستقبله السياسيّ، أكثر منه على حياة المرأة الشابّة.

تندّد "أوتس" بالنظام الاجتماعي- الاقتصادي الأميركي، على أنّه قاسٍ، مرتين: عندما تتكلّم على "أنانيّة وقسوة مجتمع غني، تبرّرهما الإيديولوجيا"[16]، وعندما تصف "سنوات حكم ريغن على أنَّه انهيار روحي محزن، سنوات الدهاء، والقسوة والأكاذيب تطلق بابتسامة مصطنعة"[17].

تقدّم البطلة "كيلي" الوصف التالي لفردانيّة الأميركيين اليوم:

"سيدي عضو مجلس الشيوخ،

"إنَّ "جيلي" لا وجود له من حيث كونه "جيلاً". فنحن مقسَّمون بفعل فوارق العرق والطبقة والتربية، بل بفعل الهوية الجنسيّة، وكلّ ما يجمعنا هو تفرّقنا"[18].

نلحظ هنا أنَّ الأميركيين لا يشكّلون حتى أمّة حقيقيّة، وفق المعنى الذي ورد في قاموس: "روبير الصغير"، وهو: "مجموعة بشريّة، لا بأس باتساعها على العموم، تتّسم بوعيها لوحدتها وبإرادة العيش المشترك".

تضمّ الرواية عباراتٍ كثيرةً عن الاحتقار الذي يشعر به الأميركيّون الأغنياء، المختارون، حيالَ غير المختارين.

"كان "هانت"، في أعماق نفسه، يعتقد صادقاً أنَّ مفتاح خلاص أميركا في المستقبل، هو الإجهاض في الدوائر السكانية الملائمة: الزُّنوج، الناطقين باللغة الإسبانيّة، الأمّهات اللواتي يعِشنَ بفضل معونة الدولة، واللواتي يبدأنَ يلدنَ الأطفال منذ مطلع مراهقتِهنّ"[19].

"كانت تشعر بشيءٍ من الاحتقار حيالَ الناس الجهلة، ليس فقط حيالَ الزُّنوج (في حين أنَّ جميع طلابها كانوا زنوجاً)، ولكن حيالَ البيض أيضاً: أي حيالَ الرجال والنساء الذين نبذهم تطورات الحضارة القاسية"[20].

ويدافع أحد الأميركيين عن عقوبة الإعدام، بقوله: "نحن نتحدّث عن المجرمين المتصلّبين، القتلة، وعن أولئك الذين حُرموا المؤهّلات العقليّة والأخلاقيّة [..] وليس عن الأناس اللائقين والمتحضّرين كالذين نعرفهم، ولكن عن الذين يشكّلون تهديداً حقيقيّاً للمجتمع"[21].

يصف الراوي فظاعة عقوبة الإعدام، مستشهداً بالمقال الذي كانت "كيلي" قد كتبته:

"كما يحدث إبَّان الشنق، تخرج العينان أحياناً من المحجرين،

وتتدلّيان، على الخدّين [...] يعذّب السَّجين حتى الموت [...] إنَّه يعيش الفظاعة القصوى، الاختناق [...] عدد الرجال السود الذين أُعدِموا في الولايات المتحدة، يفوق عدد البيض [...] إنَّ البيض الذين يَقتلون زنجيّاً هم أقلّ عرضةً لعقوبة الإعدام"[22]، من الزُّنوج الذين يقتلون إنساناً أبيض".

تعافى "كيلي" ممّا يسمّيه "هربيرت مركوز" (Herbert MARCUSE) "النفي القامع للتصعيد"، الذي سنفرد له الفصل التالي. أعني بذلك تحويل الإنسان إلى مجرَّد شيء جنسي. إنَّه التشييء المطلق للكائن البشري. إنَّه يُقرَن باصطياد الفتيات في المراقص والملاهي والشارع. منذ فترة قريبة، قالت لي صديقة أميركيّة إنَّ الأميركيّين من الذكور يميلون إلى تحويل فنّ الغزل إلى طرح سؤال بسيط: "هل تحبين ممارسة الجنس؟".

إليكم إذن رد فعل "كيلي" إزاء "النفي القامع للتصعيد".

"كانت تخشى هذه النهاية للأسبوع، لأنها كانت تشعر بانزعاج متزايد في سهرات مثل هذه. كان المسكر والمرح والإباحيّة في التعليقات الجنسيّة تحرجها [...] وكانت، إذا ما نظر إليها الرجال، تتشنّج، فترتجف فكّاها، ويختلج قلبُها خيفةً. بالمقابل، إن كان الرجال لا ينظرون إليها، ولم تعد عيونهم تراها، كما لو كانت غير مرئيّة، كان ينتابها خوف أشدّ، ليقينها بفشلها، ليس فقط بوصفها امرأة وحسب، ولكن أيضاً بوصفها كائناً بشريّاً"[23].

يقول النقاد إنَّ روايات "جويس كارول أوتس" واقعيّة. وفي نظري، إنها تدلّل على نحو أفضل من جميع الإحصائيّات، على انحطاط الإمبراطوريّة الأميركيّة. ففيها نرى بؤس وألم الأرقّاء الأميركيّين. فإنَّ الشعب الأميركي هو حقّاً تعيس. ولكن فكرة إدانة النظام الاجتماعي-

**الاقتصادي الأميركي، بسبب هذا البؤس، أمر غير معقول. والأسوأ من ذلك، أنَّ الأميركيّين كثيراً ما يعجزون عن الإقرار بأنّ شقاءهم ليس مشكلةً شخصيّة، بل بالأحرى مشكلة اجتماعيّة. وكلٌ يعيش معزولاً في بؤسه. ويبحث عن طبيب نفسي من أجل أمراضه النفسيّة، في حين أنَّ المجتمع بأسره يحتاج في الواقع إلى "من ينظّف روحَه".**

**"ما من شجرةٍ جيّدةٍ تستطيع أن تحملَ ثماراً سيّئةً، وما من شجرةٍ سيّئةٍ تستطيع أن تحملَ ثماراً جيّدة". (انجيل متّى 7/18).**

# مراجع الفصل الخامس

[1] جويس كارول أوتس، "شهوات أميركية" – نيويورك– "هاربر اندرو" – 1990– ص 11.

[2] جويس كارول أوتس، "لأن ذلك أفضل، ولأنه قلبي"– نيويورك– بانغوان–1990– ص18.

[3] المرجع ذاته، ص 26.

[4] المرجع ذاته، ص 95.

[5] المرجع ذاته، ص305.

[6] جوناثان كوزول "أميركا الأمّية" – نيويورك– نيو أمريكا لايبريري– 1985– ص4.

[7] جويس كارول أوتس "لأن ذلك أفضل، ولأنه قلبي"– المرجع المذكور– ص263.

[8] جويس كارول أوتس "ظهور الحياة على الأرض"– نيويورك– نيودابركش– 1991– ص20

[9] المرجع ذاته، ص 12.

[10] المرجع ذاته، ص 94 .

[11] المرجع ذاته، ص 83.

[12] المرجع ذاته، ص 111.

[13] المرجع ذاته، ص 123.

[14] المرجع ذاته، ص 105–106.

[15] جوناثان كوزول – المرجع المذكور ص5.

[16] جويس كارول أوتس "مياه سوداء" – نيويورك– بانغوان– 1992– ص82.

[17] المرجع ذاته، ص 106.

[18] المرجع ذاته، ص 100.

[19] المرجع ذاته، ص 41.

[20] المرجع ذاته، ص 56.

[21] المرجع ذاته، ص 128.

[22] المرجع ذاته، ص 128–129.

[23] المرجع ذاته، ص 71.

# الفصل السادس

# تحليلات أخرى للذهنيّة الأميركية

**أميركا - إعشقها أو اهجُرْها!**

**إنَّ المؤلّفين الذين يحلّلون الذهنيّة الأميركيّة، ينقسمون في سهولة إلى فئتين: فئة ما قبل القرن العشرين، وفئة القرن العشرين. لدى الفئة الأولى، يبلغ التفاؤل والإعجاب حيال الشعب الأميركي، حدّ الإجماع تقريباً. بالمقابل، فإنَّ جميع مؤلّفي الفئة الثانية تقريباً يعبّرون عن خيبة أملهم.**

**قبل القرن العشرين، كان الناس يؤمنون بالحلم الأميركي، وكانوا يُؤخَذون بكلّ ما هو مبتكر في الولايات المتحدة. وكانوا يتوقّعون تأثير الأميركيّين الإيجابي على سائر شعوب الأرض. ومع ذلك، فإنَّ نقّاد القرن العشرين يعترفون بالمظالم والعبثيّات، التي أفرزتها الحياة العصريّة، فوق الأرض الأميركية. وقد تحوّل الوعد بتحسين الوضع الإنساني، إلى تهديد يطال القيم الأساسيّة للحضارة الغربيّة.**

**قد عبّر أناس من أصول متباينة جداً، عن خيبة أملهم حيال الواقع الأميركي الراهن. والاحتجاجات تتعالى، سواء أتت من زنوج أو من دعاة الحركات الإنسانيّة أو النسائيّة أو السلميّة، أو من الأقلّيّات، أو من جماعات هامشيّة. لقد تحوَّل الحلم الأميركي إلى كابوس. ومع ذلك، فقلَّةٌ هي التي ترى أنَّ المشكلة أصبحت عامّة، وأنَّها لا تقتصر فقط على الفئة التي ينتمي إليها صاحب الشكوى.**

سنفحص هنا بعض التعليقات حول الأميركيّين، كتبها ثلاثة مراقبين عاشوا قبل القرن العشرين، نعني بهم "هكتور سانت جون دوكريفكور" (Hector Saint John De CREVE COEUR) (1735–1813)، و"الكسي دو توكفييل" (Alexis De TOCQUEVILLE) (1805–1859)، و"فريدريك تورنر" (Frederick TURNER) (1861–1932). وسنفحص أيضاً تعليقات بعض المحلّلين من القرن العشرين، مثل "هنري ميلر" (Henry MILLER) (1891–1980)، "جيمس بالدوين" (James BALDWIN) (1924–1987)، "هربيرت ماركوز" (Herbert MARCUSE) (1898–1979)، و"آلان بلوم" (Allan BLOOM) (1930–1994). من هؤلاء المؤلّفين السبعة، "تورنر" وحده لم يُمضِ فترةً طويلةً خارج بلده الأصلي. فالآخرون إذن أقدر على مقارنة الأميركيّين بقوميّات أخرى.

وسيذكّر الفصل الحالي بالعلاقات الوثيقة التي تربط فرنسا بالولايات المتحدة، منذ مطلع تاريخهما. وفي الواقع، فإنّ "كريفكور" و"توكفيل" كانا فرنسيّين، فضلاً عن ذلك، فإنَّ "ميلر" و"بالدوين" هاجرا إلى فرنسا.

وُلِد "كريفكور" في فرنسا عام (1735). وبعد أنَّ خدم في جيش القائد "مونتكالم" (MONTCALM) في "كيبك"، استقرّ في مزرعة في ولاية نيويورك، حوالي عام (1769)، ثم عُيّن قنصلاً لفرنسا في نيويورك، عام (1783). أخيراً عاد إلى فرنسا، حيث تُوفّي عام (1813).

إنّه مؤلّف "رسائل مُزارع أميركي"، التي نُشرت باللغة الإنكليزيّة عام 1782. وهو يُبدي في كتابه هذا إعجاباً لا حدّ له بالأميركيّين، ويمتدح البلد الذي تبنّاه، بلغة كثيراً ما تتّسم بالمبالغة: "نحن أكمل المجتمعات في العالم"[1]. وما يقدّره في الولايات المتحدة، إنَّما هو الحرّيّة والمساواة والازدهار، والصناعة، والأخلاق الحميدة، والحكمة، وعشق الآداب. فالبلد الجديد هو ملجأ لفقراء أوروبا، الذين يجدون فيه فرصةً للإثراء.

أمَّا مصير الفلاحين الأوربيّين، فيحدّد "بالكسل غير المقصود، بالتبعيّة والخُنوع، بالشحّ والعمل غير المجدي"[2]. بالمقابل، فإنّ عمل الأميركي يتضمّن "أعمالاً مختلفة بطبيعتها، تكتمل بوجود ملائم"[3]. وقد حظي هو بالعيش في أميركا، في فترة تجلّت فيها المساواة بين البيض في توزيع الثروات: "إنَّ الأغنياء والفقراء ليسوا ببعيدين بعضهم عن بعض، كما هي حالهم في أوروبا"[4]. وهو يصف البلد على أنّه البلد المثالي، حيث معظم الناس فلاحون، يعيشون في انسجام مع الطبيعة ومع جيرانهم. وإن جِدّة الوضع الأميركي لتشكّل وعد هذا البلد. فإنّ "كريفكور" يرى فيه "عرقاً جديداً من البشر، سوف تُحدِث أعمالهم ونسلهم، يوماً، تغييراتٍ كبيرةً في العالم"[5]. وقد بلغ المجتمع فيه ذروةً من العدالة، تجعل الإجرام فيه مجهولاً تقريباً.

في حقيقة الأمر، ما يصفه "كريفكور" إنما هو يوطوبيا، وهو يرى أنَّ الأوروبي، عندما يصل إلى أميركا، "يرى السعادة والازدهار في كلّ مكان، ويلقى ترحيباً طيّباً، واللطف والوفرة حيثما توجّه. ولا يشاهد فقراء البتّة، وهو قلّما يسمع كلاماً عن العقوبات والقتل"[6]. وكان ردّ فعل قرّاء القرن الثامن عشر، شبيهاً في الغالب بردّ فعلنا: إنَّ ذلك أجمل من أن يكون حقيقيّاً.

أما "الكسي دو توكفيل" من جهته، فهو أرستقراطي فرنسي، سافر عام 1831 إلى الولايات المتحدة، وقد اجتذبه البلد كما حدث "لكريفكور". فاهتمّ خصوصاً بأشكال الحكم، ولكنه دأب على مراقبة أخلاق الأميركيّين. وكان أكثر ما أعجبه، المساواة بين الناس[7]، ممّا جعله يقول في سذاجة كبيرة إنَّ المجتمع الأميركي يتوجّه نحو حالة لن يكون فيه "لا فقراء ولا أغنياء"[8]. ويتحاشى "توكفيل" عن مسألة العبيد الزُنوج، الذين يشكّلون، مع ذلك، ربع السكان. إنَّهم لا يملكون أيّ حقّ مشروع، ولكن عبوديّتهم وشقاءهم غابا عن عينيّ

الأرستقراطي الفرنسي، الذي يمتدح المساواة بين الجميع في الولايات المتحدة، والنِّساء بالطبع غِبنَ أيضاً عن أفقه.

لا بدّ من الاعتقاد بأنّ "توكفيل" لا يرى من الحياة الأميركيّة إلاّ سطحها، فهو يصرّح: "إنَّ بلدات "إنجلترا الجديدة" تتمتّع على العموم بحياة سعيدة"[9].

إنَّ السعادة الأرضيّة لم تكن يوماً إحدى سمات طهرانيّي "إنجلترا الجديدة".

بل إنَّ ذلك لم يدخل يوماً في نطاق رغباتهم. بالمقابل، فهو يلحظ بوضوح فردانيّة الأميركيّين المفترسة، احتقارهم لكلّ سلطة مركزيّة، والمصير البائس المحفوظ للفاشلين. إنَّه يصرّح: "إنَّ الساكن في الولايات المتحدة، يتعلّم، منذ مولده، أنَّه يتوجب عليه الاعتماد على نفسه، كي يقاوم مآسي الحياة وتعقيداتها. وهو ينظر إلى السلطة الاجتماعيّة، نظرة حذرٍ وقلق، ولا يلتجئ إليها إلا عندما لا يستطيع الاستغناء عنها[10].

وإنّ الأميركيّين ليشكّلون، بفضل هذه الفردانيّة، "جماهير من المواطنين النظاميين، القنوعين، المعتدلين، الحريصين، المنضبطين"[11].

صحيح أنَّ إعجاب "توكفيل" بالأميركيّين، يترافق ببعض التحفّظات، لا سيّما في ما يتعلّق باستبداد الغالبيّة المحتمل[12]، ولكنّه، على العموم، هو يعتقد أنَّ النظام الأميركي قادر على ضمان تفتّح المواطنين. وهو يتوقّع، في حدس نافذ، تأثير الأميركيّين الضخم على سائر شعوب الأرض في الأحقاب الآتية.

من ناحية أخرى، فإنّ "فريدريك جاكسون تورنر"، وهو مؤرّخ أميركي، يرى أنَّ "غزو الغرب" قد أسّس الذهنيّة الأميركيّة: وهو ينسب إليه الأهميّة نفسها التي أنسبُها أنا إلى الإرث الطُهرانيّ. وقد قدّم "تورنر" أطروحته، بمناسبة مؤتمر عقدته الجمعيّة التاريخيّة الأميركيّة، في شيكاغو، عام (1893). فهو يرى أنَّ وجود أراضٍ واسعة،

بكر، غير مستثمرة، في غرب البلاد، يفسّر الصفات الأميركيّة الخاصّة، مثل حبّ الحريّة والفردانيّة والاندفاع في العمل، والتفاؤل والتجديد والوطنيّة. ولنسلّم بأنّ جميع هذه الصفات، هي صفات الطّهرانيّين. وهذه كلّها، في رأي "تورنر"، هي، على الدوام، صفات جيّدة يحقّ للأميركيّين الافتخار بها.

إنَّ رجل الغرب الأميركي، مثله كمثل أحفاد الطُهرانيّين، الذين استقرّوا في كبريات مدن الشرق الأميركي، يساوي بين جمع الأموال ونجاح الفرد: "إنَّ "تورنر" يضمّ صوته إلى سائر الأميركيّين، ليؤكّد أنَّ النجاح يُقاس بالثروة"[13].

وفي الواقع، قد يكون أقرب إلى الصواب القول بأنّ غزو غرب البلاد، قد وفّر للأميركي إمكانيّة نشر القيم الطُهرانيّة، التي كانت تؤلّف آنذاك نواة الذهنيّة الأميركيّة، من الادّعاء بأنّ غزو الغرب الأميركي هو الذي خلق هذه الذهنيّة.

ومع ذلك، فإنّه لأمرٌ مثيرٌ ألاّ يُبرِز "تورنر"، تبعاً لمنظوره الشخصي، دور غزو الغرب، في ما يتعلّق ببعض سيّئات الأميركيّين، التي تصدم زوّار البلدان الأخرى. وتخطر بالبال، هنا، مثلاً، ميولهم العنيفة، الإجراميّة والبدائيّة.

إنَّ موقف المثقّفين في القرن العشرين، حيالَ الولايات المتحدة، يختلف كلّيّاً عن موقف مراقبي القرون السابقة. فإنّ التفاؤل والاعتزاز يُخليان المكان للتشاؤم والخجل. وليس ثمّة سوى السياسيّين، الذين يؤكّدون للأميركيّين أنّهم يعيشون في أعظم بلد في العالم.

عام 1939، عاد الكاتب "هنري ميلر" إلى الولايات المتحدة، بعد هجرة عشر سنوات، أمضاها في فرنسا. فقام بجولة في الولايات المتحدة، رسّخت لديه نظرته المتشائمة إلى بلده الأصلي، التي كان قد احتفظ بها طوال إقامته في باريس. فهو يرى أميركا بعيني إنسان أوروبي، لكنّه لا يشارك الغريب في تسامحه إزاء أوهان شعب أجنبي.

فيتبدّى الأميركيّون له سطحيّين، مادّيّين، جبناء، مغرورين، قرويّين، مهووسين بالأشياء والتفاهات. وهو يرى أنَّ المدن بشعة، والعمران لاإنسانيّ، والدعاوة سخيفة، والناس يعيشون في صحراء ثقافيّة وروحيّة. إنَّ ملاحظة "ميلر" تلتقي إذن ملاحظتي في نقاط كثيرة.

من الملائم أنَّ أترك الكلام لميلر، الذي يعبّر أفضل من سواه، عن خصائص الذهنيّة والسلوك الأميركيَّيْن، في قصّة رحلته التي تحمل عنوان: "الكابوس المكيّف".

إنَّ الجملة التالية تكشف الكثير من تفكيره:

"كان ذلك حطاماً ضخماً أحدثته وحوشٌ عاشت في حقبة سبقت وجود البشر، أو هي دون البشر، في فهمٍ جنوني"[14].

ويرى "ميلر" أنَّ مدينة نيويورك أكثر الأماكن فظاعة في العالم. صحيح أنَّ ردود الأفعال حيالَ نيويورك، هي دائماً بالغة التطرف، فإمّا هي تُحَبّ بشغف كبير، وإمّا هي مَحَطّ كراهية. إذ كنتُ طفلاً، كنت أهيم بها، ولكني، الآن، لا أرغب قطّ في العودة إليها، بل إنّي أميل إلى الإشفاق على مَن يعيشون فيها. وفي آخر زيارة لي إلى نيويورك، لم تتحقّق إلا متعةٌ واحدة: هي متعة التكلّم باللغة الإسبانيّة مع الناطقين بها.

على كلَّ حال، كثيراً ما كان يُتاح لي التكلّم باللغة الإسبانيّة، أكثر من اللغة الانكليزيّة. وقد تبيّن لي أنَّ الناطقين باللغة الإسبانيّة، كانوا يشعرون بالامتنان من أنَّ أميركيّاً ناطقاً باللغة الانكليزيّة، كلّف نفسه عناء تعلّم لغتهم.

ينتقد "ميلر" سوقيّة الأميركيّين وهدرهم، وهو يؤكّد:

"في الواقع، إنّنا جمهور سوقي وعدواني، يتحكّم بأهوائه، في سهولة، قادة غوغائيّون، وصحفيّون متطرّفون دينيّون، ومحرّضون وسواهم. إنّه لمن الكفر تسمية هذا البلد بمجتمع أناس أحرار.

**ماذا لدينا لنقدّمه للعالم، سوى النهب الهائل الذي أخضعنا الأرض له دونما تفكير، في الوقت الذي نحافظ فيه على الوهم الجنوني، بأنّ هـذا النشاط الغبي يمثّل التقدم والنور؟ إنَّ بلد الإمكانيّات قد أصـبح بلـد الاستغلال والصراعات العبثية"[15].**

**يهاجم "ميلر" أيضاً فكرة التقدّم الأميركيّة. وهو يقول إنّه تقدّم زائف، مؤسَّس على أوهام ماديّة وحاجات اقتصاديّة زائفة. وهو يؤكّد أنَّ "كلَّ ما لا يمكن شراؤه أو بيعه، مستبعَد، سواء كان ذلك أشياءً وأفكاراً ومبادئ وأحلاماً أو آمالاً"[16].**

**ويرى "ميلر" أنَّ الأميركيّين قد سمّمتهم أشياء العالم الحديث. وقد بلغوا حدّاً من الهوس بالأشياء الماديّة، جعلهم يفقدون كلَّ اتصال بروحهم. وهو يصرخ: "إنهم يرون سيّارة جميلة، متألّقة، تخرّ مثل قطّ... يرون الوهج، اللون، الأشياء التافهة، الدمى، الرفاه. ولا يرون ما يتأكّل قلب العامل الأميركي، من مرارة، وشكّ، ونقمة، وفراغ وعقم ويأس"[17].**

**التقى "ميلر" أوروبيّين كثيرين، حاولوا أن يعيشوا في الولايات المتحدة، ولكنّهم تخلّوا عن مشروع تحوّلهم إلى أميركيّين، بسبب ما يسود البلد من ضيق روحي. "أفكّر في العديد من الرجال البارزين، الذين زاروا البلد، ثم عادوا إلى بلادهم الأصليّة، في حالة من الحزن والقرف وخيبة الأمل. ثمّة شيء تستطيع أميركا أن تعطيه، وههنا كلّهم متّفقون "إنّه المال"[18].**

**أذكر أنّي التقيت عجوزاً روسيّة، كانت تعيش في الولايات المتحدة منذ أربعين عاماً. وكنت أقوم بدور الترجمان في لقائها مع صديقة فرنسيّة. وبعد أن قمتُ بعملي الصعب في الترجمة إلى الروسيّة وإلى الفرنسيّة، طيلة ساعتين، اضطررتُ لإجابتها على سؤال حول بلدي الأصلي. عندها، قلت لها باللغة الروسيّة: "إنّي أميركي". فأجابتني على**

الفور: "إن كنتَ أميركيّاً، فأنا لا أحبّك". فقد رأيت أمامي أربعين سنةً من البؤس والشقاء، أربعين سنةً من الحنين إلى قريتها الأصليّة على ضفاف الفولغا، والى ثقافة كانت تبدي من الحرص على الإنسان، أكثر ممّا تظهره الثقافة الأميركيّة المعاصرة.

يبقى أنه، من جميع الشعوب التي تقطن هذا البلد، يحقّ للزنوج أكثر من سواهم، أنْ يشكوا من خيبة أملهم من التجربة الأميركيّة. يسجّل "جيمس بالدوين" في كتابه "النار في الزمن الآتي"، وهو كاتب زنجيّ عاش في "هارلم"، واقع القمع الذي كان الزُّنوج ضحاياه، منذ قدومهم في القرن السابع عشر. وهو يزعم أنّ البيض هم بدورهم أسرى أسطورة تفوّقهم العرقي، مثلما أنَّ الزُّنوج هم أسرى دونيّتهم التي صنعها البيض. ويرى الزُّنوج رئاء البيض، لا سيّما من خلال تظاهراتهم الدينيّة. وقد آن الأوان، كي يشترك الزُّنوج في السلطة في الولايات المتحدة، وإلا فالبلد منتهٍ إلى حمّام من دمٍ، وفق ما يعتقده المسلمون الزُّنوج.

يرى "بالدوين" أنَّ مصدر سلطة الزُّنوج، يجب أنَّ تكون معرفتهم بالبيض، وهي تفوق معرفة البيض بأنفسهم. وفي الواقع، فإنّ الزُّنوج يبصرون الأكاذيب والأوهام التي يختبئ البيض خلفَها. ويرفض الزُّنوج الميتولوجيا الأميركيّة، الأمر الذي سيعجّل في أفول الإمبراطوريّة الأميركيّة.

يصرّح بالدوين:

"يتمتّع الزنجيّ الأميركيّ بالامتياز القائم على أنَّه لم يؤمن يوماً بمجموعة الأساطير، الغالية جدّاً على قلوب البيض: من أنَّ أجدادهم كانوا أبطالاً يعشقون الحريّة، وأنَّهم وُلدوا في أفضل بلدٍ عرفه العالم، وأنّ الأميركيّين لا يُقهَرون في الحرب، وأنّهم حكماء في السلم، وأنَّ الأميركيّين تصرّفوا بشرفٍ مع المكسيكيّين، وسكّان أميركا الأصليّين، وسائر جيرانهم والبشر المتخلّفين، وأنّ الرجال الأميركيّين هم أكثر رجال الدنيا صراحةً ورجولةً، وأنّ النساء الأميركيّات طاهرات"[19].

وقد أقنع البيضُ الزنوجَ بدونيّتهم، بحيث بات الزُنوج يكرهون أنفسَهم، وهم يتبنّون أحكام البيض المسبقة حيالَهم. إنَّها مأساة الإنسان المستعمَر، كما وصفها "فرانتس فانون" (Frantz FANON). هي تصادفنا لدى كلّ الجماعات المقهورة، سواء كانوا زنوجاً أم كيبكيّين، أم نساء أو "جنسيّين مثليّين". وإنّ الشعور بالدونيّة يسوق المستَغَلّين إلى الاعتقاد بأنّهم لا يستطيعون الإتيان بعمل، إلا بمبادرة من مستغلّيهم. هذا الواقع، يعبّر عنه "بالدوين" بالأسلوب التالي:

"إنَّ النصر الأميركي، وهو، في آنٍ واحد، المأساة الأميركيّة، ينجم عنه كراهية الزُّنوج لأنفسهم. عندما كنتُ صغيراً، كنت أكره نفسي، وما كنت أتقن شيئاً آخر سوى هذا. وكان ذلك يعني أني كنت أكره أيضاً، بصورة لا شعوريّة وعلى الرغم مني، أبي وأمي وأخوتي وأخواتي. عندما كنتُ صغيراً، كان الزُّنوج يقتتلون مساءَ كلِّ سبت، في شارع لينوكس (Lenox Avenue). لم يوجد مَن يشرح لهم أنَّ البيض كانوا يريدون أن تكون الحال كذلك، وأنهم يعيشون في قفصٍ كحيوانات، كي يعتبروا أنفسَهم بمثابة حيوانات[20]".

في نهاية المطاف، يجب إدانة النظام الاجتماعي - الاقتصادي الأميركي، بسبب مصير الزُنوج. وكلّما استمرّ نظام "الأدغال الرأسماليّة"، سيستمرّ أيضاً استغلال الأقوياء للضعفاء. يضيف "بالدوين":

"نعلم أنّنا، نحن الزُّنوج – ولكن لسنا وحدَنا المصابين بهذه الحال – كنّا ونظلّ دائماً ضحايا نظام، لا محرّك له إلا النّهم، ولا إله له إلاّ الكسب. ونحن نعلم أنَّ ثمار هذا النظام هي الجهل واليأس والموت. ونعلم أنَّ النظام محكوم عليه بالفشل، لأنّ العالم لم يعد بوسعِه أن يدفعَ الثمن"[21].

أما "هربيرت ماركوز" (Herbert MARCUSE)، فإنَّه يقترح نقداً للمجتمع الحديث، يجمع بين الفكرة الماركسيّة والفكرة الفرويديّة.

وهدفه هو دائماً الحياة في ظلّ النظام الرأسمالي المتقدّم، سواء كان في أوروبا أو في أميركا. والحال أنَّ قراءةً متأنّيةً لمؤلّفاته، تُظهر أنَّ الولايات المتحدة هي التي اتّخذها أساساً لتحليله. وإنّ الذين يعرفون بلدَه الأصلي، ألمانيا، يستشعرون بسهولة حنينه إلى ثقافة طفولته، ثقافة ألمانيا ما قبل الحرب العالمية الأولى.

وقد نُفي في عهد هتلر، لأنّه كان يهوديّاً وماركسيّاً، فاختار الولايات المتّحدة بلداً لمنفاه. وقد أحدث تأثيراً هائلاً على الثوريّين من أبناء جيلي، في أوروبا والولايات المتحدة على حدّ سواء. وكانت "أنجيلا ديفيس" أشهر طلابه وتلامذته، وهي ثوريّة زنجيّة درست الفلسفة الماركسيّة.

يتبنّى "ماركوز" القضية القائلة بأنَّ الجنس البشري يملك، لأوّل مرة في التاريخ، ثروةً وتكنولوجيا، تمكّنانه من تأمين الحدّ الأدنى من مستوى الرفاه لجميع البشر. والذي يحول دون مثل هذه الجنّة، هو استمرار مظالم الرأسماليّة الأميركيّة، التي تبيح للقلّة الحاكمة استغلال سائر البشر. ولا بدّ من التذكير بأنّ مَن يخضع لمستثمري "وول ستريت" (Wall Street)، ليس الشعب الأميركي وحدَه، فلكلّ بلد من بلدان العالم دَينُه الوطني، ولكنّ الذين ينعمون بالفائدة ينتمون جميعهم إلى الأقلّيّة عينها.

إنّ أكثر كتب "ماركوز" شهرةً، هو "الإنسان ذو البعد الواحد" (One Dimensional Man). وهو يصف فيه تنازل الإنسان الحديث عن حرّيّته، بعد أن بلّد عقلَه المجتمع التكنولوجي بشموليّته الثقافيّة. فالفرد يُسحر بصور الفعاليّة والمتعة التي تقدّمها وسائل الإعلام، وهي صور تحرّض باستمرار جميع حواسّه.

والدعاوة، بحضورها الكلّي، تخلق حاجاتٍ زائفة، تحاول الاستجابة لها ضحايا هذا الغسل الإعلامي للأدمغة.

**وإنَّ هذه المحاولة، المحكوم عليها بالفشل، من أجل إشباع الحاجات الزائفة، تولّد "العمل، والعدوانيّة، والبؤس والظلم"[22].**

**إنَّ المجتمع الحديث مجتمع لا عقلاني، يعرقل التطور الحرّ للعقل الفردي. وهو يَدمُج الحياة العامّة بالحياة الخاصّة، على نحوٍ تتلاشى فيها الحياة الفرديّة. والنموّ الاقتصادي للنظام الرأسمالي، يُفضي حتماً إلى هدرٍ لا حدودَ له: "إنَّ أنظمة المراقبة الاجتماعيّة تقود إلى حاجة إنتاجيّةٍ لا تُقاوَم، وإلى استهلاك النفايات، والى حاجةٍ للعمل المضني حيث لم يعد ضرورياً، وإلى حاجة لأوقات فراغ تُريح من هذه الحالة من البلادة وتديمها، والى الحاجة للإبقاء على حرّيّات خدّاعة، مثل التنافس الحرّ حول أسعارٍ ثبُتَت مسبقاً، وصحافةٍ حرّة تراقب نفسَها بنفسِها، والى الخيار الحرّ بين المعروضات الثمينة والخدع"[23].**

**إنَّ مفهوم العقلانيّة في حدّ ذاته، يتحوّل في إطار الرأسماليّة المتقدّمة، لأنّ النظام يبدع عقلانيّته الخاصّة، ويبلغ تماهي الإنسان مع الخيور المادية في المجتمع الاستهلاكي، حداً يتحوّل هو معه إلى خيرٍ مادي. وهنا لم يعد تقريباً من معنى لمفهوم الاستلاب، كما حدّده ماركس، لأنّ تقبّل الإنسان نفسياً للتوجّه المادي في مجتمعه، تقبّل مطلق. وإنّ ديانة الاستهلاك تفوق بشموليّتها الأنظمة الأسطوريّة السابقة.**

**يؤكد ماركوز:**

**"إنّنا في مواجهةٍ، مرّة أخرى، مع أحد أكثر الوجوه إزعاجاً في الحضارة الصناعيّة المتقدّمة، أعني به الطابع العقلاني لانعدام العقلانيّة فيها. وإنَّ فكرة الاستلاب بعينها، تصبح موضع شكّ، إزاء إنتاجيّتها وفعاليّتها، وقدرتها على زيادة الرفاه وتوسيعه، وتحويل الهدر إلى حاجة، والتدمير إلى بناء، وإزاء هذا الواقع وهو أنَّ هذه الحضارة تُحوّل عالم**

الأشياء إلى امتدادٍ لفكر الإنسان وجسده. فيتعرّف الناس إلى بعضهم البعض في بضائعهم، وهم يجدون روحَهم في سيّارتهم، في نظام الستيريو في بيوتهم، وفي أدواتهم الكهربائيّة المترليّة.

"إنَّ الآليّة التي تربط الفرد بمجتمعه، قد تبدّلت، والرقابة الاجتماعيّة ترسّخت في الحاجات الجديدة التي أنتجتها"[24].

قليلون هم القرّاء الذين يعترفون بحنين "ماركوز" إلى ثقافته الأصليّة، لأنه يبدو مفرطاً في حداثته وثوريّته، ومع ذلك فنادرون هم الذين خبروا شخصيّاً أجمل وُجوه الثقافة الألمانيّة التقليديّة.

إنَّ صدمة الثقافة الألمانيّة التقليديّة بالثقافة الأميركيّة الحديثة، تقود "ماركوز" إلى ابتكار عبارة "الإلغاء القمعي للتصعيد". وهو َيسم الحياة الجنسيّة الخالية من الرومانسيّة، والمُدمّرة للإنسان الحديث.

فإنّ "فرويد" يرى أنَّ تصعيد الاندفاعات الجنسيّة، هو مصدر الإبداع الفنّي والروحي. فهو يُحرّر ويُلهم. وإنّ تلاشيه في الحياة الحديثة، يُحدث حالاتٍ من العصاب والذهان والعقد الجنسيّة. إنّ إلغاء التصعيد ينجم عن تحويل الحياة الجنسيّة إلى مادة استهلاكيّة، مثلها مثل أية متعة أو تسلية.

من هنا كان التعبير الأميركي "امتلاك الجنس" (Having Sex). عندما يتلاشى الجانب الرومانسي من الحبّ، يتلاشى في الوقت ذاته معنى المأساة. فقد غاب بُعدٌ روحيّ جوهريّ، وإذن فالإنسان الحديث هو حقّاً إنسان ذو بعدٍ واحد.

يرى الأميركي الحديث "أنَّ الاحتفاء بالشخصيّة المستقلّة، وبالنزعة الإنسانيّة، وبالحبّ المأساوي والرومانسي، يبدو وكأنّه المثال لمرحلة متخلّفة من التطور"[25].

وهو، في غروره، يظنّ أنَّه بلغ مرحلةً متفوّقةً من التطوّر البشري، في حين أنَّه، في الواقع، ضحيّة نزعةٍ لاإنسانيةٍ، لا سابقة لها في التاريخ البشري.

ولذلك، فإنّ الفئة من سكّان أميركا، التي تفوق بسرعة تزايدها، سائر الفئات، هي فئة المرضى العقليّين. وقد بات الكثيرون من الأجانب، ينظرون إلى الأميركيّين على أنّهم مجانين. من ذلك أني تعرَّفت في باريس إلى شابّ من "هونغ كونغ"، كانت أسرته كلّها تعمل على الاستقرار في كاليفورنيا، باستثنائه هو، لأنّه شاء أن يعيش في فرنسا، على الرغم من مصاعب اللغة والهجرة. فسألته: "لماذا؟"، فأجابني "لأنَّ جميع الأميركيّين مجانين".

إنَّ المقارنة التي يجريها "ماركوز" بين ثقافة طفولته والثقافة الأميركيّة، تجد تعبيراً واضحاً لها في المقطع التالي:

"قارنوا الجنس الذي يمارَس في حقل، بذاك الذي يمارَس في سيارة، أو قارنوا نزهةً لعشّاقٍ خارجَ جدران مدينة، بالنزهة في أحد شوارع "مانهاتن". في الحالتين الأوليَين، تشارك البيئة في عمليّة تطهّر شهواني وتشجّع عليها، وهي تحمل على الاتّشاح بجوّ جنسي"[26].

هذه المقارنة تأتي صريحة أيضاً، عندما يأسف لتلاشي الثقافة التقليديّة الأميركيّة، من التربة الأميركيّة. تلك الثقافة كانت ثقافة النخبة المثقّفة، وهي أقليّة صغيرة في كلِّ بلد أوروبي، وكانت في الواقع ثقافة الطالب الشاب "ماركوز"، في عهد القيصر غليوم الثاني. واليوم باتت ثقافة النخبة مغيّبة كلّيّاً في الثقافة الشعبيّة. فالجميع يشاهدون الأفلام ذاتها، وبرامج التلفزيون ذاتها. لم يعد الناس يقرأون، ولم يعودوا يتعلّمون اللغات الأجنبيّة أو القديمة. وإذن فإنّ ثقافة النخبة تنتقل بالطريقة نفسها، التي تنتقل بها الثقافة الشعبيّة

بتفاهاتها السوقيّة. لقد أصبحت إحدى المواد الاستهلاكيّة. ويشرح "ماركوز" هذا الأمر، على النحو التالي:

"إنَّ وسائل الإعلام، إذ تخلط بطريقة منسّقة، كثيراً ما لا تظهر للعيان، الفكر والسياسة والدين والفلسفة، مع الدعاوة، تردّ هذه الميادين الثقافية إلى قاسمها المشترك، الذي هو البضاعة. فتصبح موسيقى الروح موسيقى البيع. والمهمّ هو قيمة التبادل، وليس قيمة الحقيقة"[27].

ومع ذلك، فإنّ "ماركوز" يرى أنَّ هناك أملاً بتغيير جذري في نمط الحياة الأميركي، يعتقد أنّه قائم لدى أكثر الناس انعداماً في المجتمع الأمريكي: الزُنوج، المشرّدين، العاطلين عن العمل، المهمَّشين، وهم أولئك الذين وصفهم كارل ماركس بتسمية شاملة هي تسمية الكادحين ذوي الثياب الرثَّة. إلا أنَّ ماركس يرى أنَّ هؤلاء الناس لا يشكّلون قوّةً ثوريّة. وإذ نقرأ تصريح ماركوز هذا، الذي يعود إلى ثلاثين سنة خلت، لا يسعنا أن نحبس تنهّداً مريراً، لأنَّ الأمل الثوري الذي استوحاه من المناضلين الزُنوج، لم يتحقّق. وفي الواقع، كان ماركوز يصرِّح:

"تحت الطبقة الشعبيّة المحافظة، تقوم شريحة المهمَّشين والمنبوذين، والمستَغَلّين، والمضطَهَدين، من شعوب وألوان أخرى، والعاطلين عن العمل، وأولئك الذين لا يستطيعون العمل. فهم يعيشون خارج النظام الديموقراطي. وحياتهم تبرز الحاجة الأكثر إلحاحاً وواقعيّةً، إلى إلغاء ظروف ومؤسّسات لا تُطاق. وهكذا، فإنّ معارضتَهم ثوريّة، حتى لو كان وعيُهم غير ثوري"[28].

من المؤسف أنَّ الفترة التي أعقبت تصريح "ماركوز"، كانت بالنسبة إلى العديد من الثوريّين المتململين، فترة مخدّرات، وعنف وإجرام وأمراض عقليّة ويأس.

إنَّ "آلان بلـــوم" (Allan BLOOM) في كتابـــه "انغـــلاق العقـــل الأميركي"، يعبّر عن خيبة أمله، حيالَ الولايات المتحدة، بالقدر نفسه الذي عبّر عنه "ماركوز".

ثمّة تقاطع بين الكثير من ملاحظاتهما. إلا أنَّ المؤلّفين يقفان على طرفي نقيض في ما يتعلّق بالسياسة. فإنّ "ماركوز" ماركسي، في حين أنَّ "بلوم" يدافع بقوّة عن نظام الولايات المتحدة، الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ومن المثير إذن أنَّ نرى أنَّ وجهة النظر في الشأن السياسي، لا تبدّل في شيء، القرفَ الذي يشعر به المثقّفون، حيالَ الثقافة الأميركيّة اليوم.

يرى "بلوم" أنَّ الطلاب الأميركيّين جهَلَة. فهم لا يقرأون ولا يعرفون من الحضارة أعمالها الكلاسيكيّة، ويتبعون تقليعات غبيّةً، ولا يستطيعون أن يتحرّروا من اللحظة الآنيّة، وهم عبيدٌ لنسبيّاتٍ ثقافيّة، تلغي كلَّ عمق فكري، ولا يقدِّرون إمكانيَّات الحبّ الحقيقي اللامحدودة، ولا يتعلّمون اللغات الأجنبيّة، ويجهلون حتى تاريخ بلادهم:

"إنَّ أفضل الطلاب اليوم، يعرفون دون ما كان يعرف أســـلافُهم، بحيث بدا هؤلاء وكأنَّهم معجزاتٌ ثقافيّة. والطلاب هم أيضـــاً أكثـــر انسلاخاً عن التقليد، وأقلُّ تعاملاً مع الفكر. والتربة، في رأيي، بلغـــت من الرقّة حدّاً لا يتيح لها تحمّل نباتاتٍ كبيرة"[29].

إنَّ الشبيبة الأميركيّة، برفضها القراءة، تقتل الحضارة الغربيّة:

"لقد فقدَ طلابنا فنّ القراءة وتذوُّقها. لم يتعلّموا القراءة، وهـــم لا يتوقّعون أن تهبهم القراءة متعةً أو تنهض بهـــم، وهـــم لا يلجـــأون إلى الكلمات المطبوعة، للبحث عن نصائح أو إلهام أو فرح"[30].

إنَّ الطلاب الأميركيّين، برفضهم القراءة، يصبحون عبيداً للحاضر. وهم ينسلخون عن الحكمة والجمال الروحي، التي لعهود أخرى وثقافات أخرى. إنّهم بالتأكيد ضحايا التلفزيون والكسل الفردي الذي

يُمثِّله. وهم يتوقّعون تلقّي المعلومات دون بذل أيّ جهد فكري، والانصراف إلى اللهو بأيّ ثمن.

لقد باتت الحياة الفكريّة ضحيّة سلسلة عبثيّة من المتع والرعشات. ويرى "بلوم" أنّ ليس ثمّة في حياة الطلاب الأميركيّين، ما يستطيع إلهامهم. فهم يعيشون وسط عالم من الصور المادّيّة. وهم يهتمّون بالمظاهر، ولا يملكون أيّة فكرة عن إمكانيّات الفكر أو الروح. إنهم ضحايا الدعاوة التجاريّة، المركّزة على استغلال الرغبات الجنسيّة. فهم إذن مهووسون بأجسادهم، ولا يتصوّرون أنَّ بوسع الحياة أن تقدّم ما هو أكثر من جوانبها الجسديّة والمحسوسة. ويؤكّد "بلوم":

"إنَّ الحياة قد أصبحت نزوةً استمنائيّةً متواصلة، تُقدَّم بطريقة تجارية"[31]. ويأسف "بلوم"، مثله مثل "ماركوز"، لغياب التصعيد في الحياة الجنسيّة لدى الأميركيّين الشبّان: "فقد التصعيد قدرتَه على الإبداع والتأهيل، والمحصّلة هي أنَّ الثقافة عطشى، والطبيعة ملوّثة"[32].

على الرغم من التباينات بين المُفكّرَين، كان بوسع "ماركوز" أنَّ يكتب هذه الجملة بعينها. ويتجلّى غياب التصعيد في الاختلاط الجنسي وغياب المشاعر الرومانسيّة. يعلن "بلوم":

"لا يسعني قبول افتقارهم إلى العشق والأمل وإدراك العلاقات القائمة بين الحبّ والموت. وإنّي أقف فاغراً فمي، عندما أرى اثنين، عاشا معاً طوال سنوات الجامعة، يفترقان ببساطة وهما يتصافحان"[33].

نجد لدى "بلوم" ما أسمّيه هوس (Snobisme) المدن الكبرى. فهو يعتقد أنَّ الحياة مستحيلة خارج المدن الرئيسة. إنَّ مثل هذا الموقف يفاجئ، على كلَّ حال، لدى إنسان يرفع عالياً ميزات تربية إنسانويّة، تفرض توسيع الآفاق. وهو يؤكّد أنَّ للأميركيّين خياراً بين مدن كثيرة مميّزة، الأمر الذي لا يتوفّر في مكان آخر: "في كندا وفرنسا، بالمقابل،

**لا يسع الناس المضي إلى أيّ مكان، وإن كان الأمر يعني الثقافة ذاتها. فبالنسبة إلى كندي ناطق باللغة الإنكليزيّة، وُلد في "تورنتو"، تشكّل مدينة "فانكوفر" الخيار الوحيد المقبول، أما الباريسي فليس له ثمة أي خيار"[34].**

**إني أعرف معرفةً تامّة هذا الهوس. فأنا أقطن مدينة صغيرة في كيبك منذ عام 1977. وكثيراً ما أرى ردود أفعال، يتداخل فيها الإشفاق والرعب، عندما أفسّر لساكني المدن الكبرى، أني أؤثر العيش حيث أنا، على المواجهة اليوميّة لضغط المدن الكبرى ولاإنسانيّتها. ذات يوم قال لي أحد الباريسيّين، قبل عودتي إلى "شيكوتيمي": "أقدّم لك تعازيّ". إني أعرف عمّا أتكلّم، لأني عشت في المدن الكبرى في الولايات المتحدة وأوروبا، مدّة أطول من تلك التي أمضيتها في المدن الصغيرة.**

**والحقّ يُقال، إني لا أشارك "بلوم" في وطنيّته. فهو يرى أنَّ الولايات المتحدة هي حقّاً أعظم البلدان في التاريخ البشري. وهو يجيز لنفسه التصريح بعبارات لا معنى لها مثل: "إنَّ أميركا تحكي قصّة واحدة، أعني بها قصة تقدّم الحرية والمساواة في أشكال حتميّة ومتواصلة"[35].**

**ولكن، حسبُ الإنسان أن يتجوّل بين أحياء "هارلم" و"ويستشستر كاونتي" في نيويورك، و"إكسبرس" و"ويسلي" في بوسطن، بين الحيّ الذي أقطنه في الشمال الشرقي من منطقة كولومبيا و"بيتسدا"، كي يتبيّن أنَّ الولايات المتحدة هي البلد الذي يتفوّق على جميع بلدان العالم بانعدام المساواة.**

**إنَّ انعدام المساواة الهائل في توزيع الثروة هو إجرام في حدّ ذاته. وهو أيضاً السبب في حرمان الناس الفادح، في جميع الطبقات الاجتماعيّة. إنَّ التنافس والحاجات الزائفة التي يجرّ إليها، تولّد نسباً عالية من الإجرام والأمراض العقلية. ثمّة وجه بشع من وجوه انعدام المساواة هذا، وهو استهلاك المتخمين الصلف، وتفاخرهم بثروتهم، إذ أنَّهم يتباهون باستعراض أنفسهم وثرواتهم أمام الناس.**

**وإنّ سوقيّة الأغنياء في الولايات المتّحدة، تفوق كثيراً بتبجّحها، سوقيّة الأغنياء في البلدان الأخرى. إنَّ هذا التبجّح ينشأ من اثنين من آثار الطُهرانيّة، أي إنَّه اعتراف عام بالانتماء إلى الشعب المختار. فيُظهِر الإنسان للملأ الترف الذي يقتنيه، دون حاجة حقيقيّة إليه، كي يتحقّق الجيران من ثروته، التي هي بدورها رمز من رموز النعمة الإلهيّة.**

**يسهل على "بلوم" التحدّث عن المساواة والحريّة في الولايات المتّحدة. فمن المرجّح أنّه لم يعش يوماً في كوخ، في سجن، في مشفى للأمراض العقلية، في حديقة أو على الرصيف. ومن الواضح أنّ تعريفه لما يشكّل المساواة، يرجع إلى مفهوم بورجوازي سبق الماركسيّة. فهو يرى أنّه يكفي الإنسان أن يمارس حقّه الانتخابي، مرّة كلَّ أربع سنوات، كي يعتقد أنه يعيش في بلد يتساوى فيه الناس.**

**ومع ذلك، فإنّ ثلثي الشعب الأميركي لا يريد حتى الاقتراع. ولسوف يكون بمنتهى الصعوبة، إقناع معظم هؤلاء الناس أنّهم متساوون مع الذين نجحوا، أقلّه وفق معايير النجاح الأميركيّة.**

**لقد رأينا إذن أنَّ خيبة الأمل حيالَ الثقافة الأميركيّة اليوم، انتزعت إجماع مثقّفي هذا القرن، سواء منهم من وُلد في أوروبا (ماركوز) أو في الولايات المتحدة (ميلر، بالدوين، بلوم)، وسواء كانوا بيضاً (ماركوز، ميلر، بلوم) أو سوداً (بالدوين)، وسواء كانوا من اليسار السياسي (ميلر، ماركوز، بالدوين) أو من اليمين (بلوم). يسعنا بالتالي أن نقلق إزاء الأمركة المتسارعة للأرض.**

# مراجع الفصل السادس

[1] ح. هكتور سان جون دوكريفكور: "رسائل من مزارع أميركي"، نيويورك– أ.ب .. ، 1957، ص 36.

[2] المرجع ذاته ص 40.

[3] المرجع ذاته، ص 40.

[4] المرجع ذاته، ص 36.

[5] المرجع ذاته، ص 39.

[6] المرجع ذاته، ص 52.

[7] الكسي توكفيل : "عن الديموقراطية في أميركا" – باريس Nouveaux Horizons– ص21.

[8] المرجع ذاته، ص 33.

[9] المرجع ذاته، ص 62.

[10] المرجع ذاته، ص 161.

[11] المرجع ذاته، ص 181.

[12] المرجع ذاته، ص 199.

[13] "سيدني فاين" و "جيرار براون" : "الماضي الأميركي: تفسيرات متنازع عليها حول القضايا الكبرى" – الجزء الثاني– نيويورك– مكميلان – 1961– ص113.

[14] "هنري ميلر" : "الكابوس المكيف" – نيويورك– نيو ديركشن– 1945– ص 12.

[15] المرجع ذاته، ص 20.

[16] المرجع ذاته، ص 24.

[17] المرجع ذاته، ص 33.

[18] المرجع ذاته، ص 48.

[19] "جيمس بالدوين" : "نار الزمن الآتي" – نيويورك، لوريل، 1962، ص 126.

[20] "انجيلا ديفيس": "إذا قدمن صباحاً" – سان فرانسيسكو، نيو أميركا لايبريري، 1971، ص 21.

[21] المرجع ذاته، ص 23.

[22] "هربرت ماركوز" الإنسان ذو البعد الواحد" – بوسطن – بيكن بريس – 1964 – ص5.

[23] المرجع ذاته، ص 7.

[24] المرجع ذاته، ص 9.

[25] المرجع ذاته، ص 56.

[26] المرجع ذاته، ص 73.

[27] المرجع ذاته، ص 57.

[28] المرجع ذاته، ص 256–257.

[29] "آلن بلوم" "إنغلاق الفكر الأميركي"– سايمون اند شوستر – 1987– ص 51.

[30] المرجع ذاته، ص 62.

[31] المرجع ذاته، ص 75.

[32] المرجع ذاته، ص 231.

[33] المرجع ذاته، ص 123.

[34] المرجع ذاته، ص 87.

[35] المرجع ذاته، ص 55.

# خـاتـمـة

"لن نكفَّ عن الاستكشاف،
وفي نهاية جميع استكشافاتنا،
سنمضي إلى المكان الذي منه بدأنا،
وسنعرفه لأول مرة."

ت. س. اليوت

إنَّ هذه المحاولة الوجيزة هي، في آن واحد، دعوة من أجل تغيير جذري لنظام الولايات المتحدة، الاجتماعي والاقتصادي، وهي تحذيرٌ إلى سائر البلدان. كان صديقي "مارك فريشيت" ( Mark FRECHETTE) على حقّ عندما قال، عام (1970)، خلال استعراض في "مسرح جوني كارسون" (Johnny Carson SHOW): "من المؤسف أنَّ أميركا تحتاج إلى ما هو أكثر من انتفاضة". إنَّ الإجراءات الملطّفة ليست بكافية. ويحقّ لنا أنْ نتساءل كم من الزمن سيستمرّ العالم الثالث في السماح لبلدٍ واحد، لا يتجاوز عدد سكانه 5.6٪ من سكان العالم، بأن يمتلك نصف ثروة الأرض.

أو كم من الزمن سيستمرّ المحرومون في الولايات المتحدة، في تحمّل امتلاك 1٪ من سكانها، نصف ثروتها، لا سيّما عندما يبدو هؤلاء في ضياع وبؤس بالغين، على الرغم من ثروتهم الضخمة، إن لم يكن بسببها.

هل تُرانا سنشهد الانتقال من "أوليغارشيّة" (قلّة حاكمة) إلى ديمقراطيّة كما وصفها أفلاطون؟ فهو يقول:

"تظهر الديموقراطيّة عندما ينتصر الفقراء على الأثريـــاء، فيـــذبحون بعضهم، وينفون بعضهم، ويتقاسمون مع الباقين، الحكم والمســـؤوليّات العامّة". (الجمهورية، VII -556b -557b)

إن واصلت البلدان الأخرى اتّباع نموذج المجتمع، الذي تقترحه الولايات المتحدة، فإنَّها ستفضي بالتأكيد إلى الضيق الاجتماعي نفسه، والى التشوّش السيكولوجي نفسه. إنَّ أمركة الأرض، ولا سيّما منذ سقوط الاشتراكيّة في أوروبا، شبح يزداد تهديده اتِّساعاً. وإنَّ أكثر جوانبه ترويعاً سيظهر في المجانسة (Homogeneisation) الثقافيّة. ويقول علماء اللغات إنَّ ألفي لغة ولهجة قد استبدلت باللغة الانكليزيّة. فإنَّ تلاشي لغة ما، مرادف لتلاشي ثقافة ما. وحيثما تحلّ اللغة الانكليزيّة محلّ اللغة الشعبيّة، تُستبدَل أيضاً الثقافة المحليّة بالثقافة الانكلو- سكسونيّة. وإنَّ مشاركتي في الصراع من أجل "كيبك" مستقلّ، يشكِّل ردّ فعل على ما يهدّد كوكبنا الصغير، من مجانسة على الطريقة الأميركيّة. إنَّ من الأميركيّين أعداداً كبيرة يتمنّون مثل هذه المجانسة. وهم من الثقة بتفوّقهم، بحيث لا يريدون التسليم بإمكانيّة تباينات ثقافيّة.

ثمّة مثال فاضح بهذا الشأن، هو رغبة "فرانكلين روزفلت" في تلاشي الشعب الفرنسي- الكندي، عن طريق الانصهار التام في الثقافة واللغة الإنكليزيّتين.

وقد كتب إلى "ماكينزي كنغ"، في 18 أيار (مايو) 1942:

"أتساءل ما إذا كان بوسع كندا والولايات المتّحدة، أن تخطّطا، ولو تخطيطاً غير مكتوب، لانصهار الناطقين بالفرنسيّة، في "إنجلترا الجديدة" وكندا... بعبارات أخرى، بعد مضي مائتي عام عليكم، وخمسة وسبعين عاماً علينا، ليس ثمّة أي سبب يبرّر استمرار الكنـــديّين الفرنســـيّين في تباينهم عن سائر الأعراق"[1].

منذ فترة قريبة، قالت لي صديقة أميركيّة، إنَّ مقاطعة كيبك متخلّفة عشرين سنة عن الولايات المتحدة. ومن المرجّح أنَّها تعتقد أنَّ فرنسا متخلّفة عنها ثلاثين سنة، "وبابوازي - غينيا الجديدة"، ألفي سنة. ومن سمات الأميركيّين، الاعتقاد بأنّ سائر بلدان العالم، يجب أنَّ تُحاكَم وفق معيار الولايات المتّحدة، والأخطر من ذلك، بأنّها لا تعيش إلاّ لتصبح مثل الولايات المتّحدة.

يعتقد الأميركيّون أنَّ قيمَهم قيم عموميّة. وهم يشفقون على الذين لم يتبنّوا نمط حياتهم. وقد ألِفوا النظر إلى سطح الأمور فقط، بحيث باتوا يكتفون بموقف تبسيطي من البلدان الأجنبيّة. فليس ثمّة ما يُفاجئ في أنَّ الأميركيّين قلّما يتعلّمون اللغات الأجنبيّة. مثلاً، إنَّ 83٪ من معلّمي اللغة الإنكليزيّة، بوصفها اللغة الثانية، لا يعرفون أية لغة أخرى سوى الإنكليزيّة. فما هي الفائدة من التحدّث إلى أناس من قوميّات أخرى، إن كان يُظنّ دائماً بأنهم متخلّفون؟

يجتاحني حزن هائل، عندما أرى حماس الشبيبة الأجنبيّة لبلدي الأصلي، سواء كانت من أوروبا الشرقيّة، وكوبا، وآسيا، أو كيبك. فقد سُحروا بالصور السطحيّة، التي يبثّها عن المجتمع الأميركي، التلفزيون والسينما. وهم يعتقدون أنَّه يكفي الإنسان الهبوط على الأرض الأميركيّة، كي يعيش كما يعيش أصحاب الملايين، الذين يشاهدونهم في مسلسل "دالاس".

لقد آن الأوان كي يدلي أحد الأميركيّين بشهادته الصريحة، وهو أميركي عاشت أسرته في هذا البلد منذ بداية بدايته، وذلك من أجل فائدة الجميع، كي يقول إنَّ الحلم الأميركي، قد تحوّل إلى كابوس، وإنَّنا لم نستطع أن نجعل "بوسطن"، "أورشليم الجديدة" التي كان أجدادنا يشتهون. وإنِّي لعلى يقين من أنَّ الطهرانيّين الأوائل، لو كان لهم أنَّ يروا اليوم ما شاؤوه "إنجلترا الجديدة"، لَكانوا اختاروا أنَّ يعودوا للتوّ إلى غياهب الموت.

فـإنّ رسـالتهم في المنـاطق المتوحّشـة لم تعـطِ النتـائج المتوقّعـة. وإنّ التجربـة الأمريكيّـة قـد انتـهت إلى فشـل. وكـلّ مـا يمكنـه إنقـاذ وطـني التعيس، هـو ظهـور الاشـتراكية الأميركيّة. وسـتكون مبتكرة بالكلّيّة، ولـن تفضـي بـأيّ حـال إلى الكـوارث الـتي أفضـت إليهـا الاشـتراكيّة في أوروبـا الشرقيّة.

يبقى لديّ ما أقوله بشأن استمرار الطُهرانيَّة في الولايات المتحدة، في القرن العشرين. أعني بذلك مسعاي الروحي الشخصي، الذي يعكس من وجوه عدّة، المسعى الروحي لدى طهرانيّي القرن السابع عشر.

قـد يسـعني أنْ أصـف محـاولتي بـالعرض، لأنـي بالتحديـد أعـرض فيها ذاتي. إنّي أعرض ماضيَّ الشخصي، في الوقت الذي أعرض فيه ماضي جماعتي الأصليّة. إنَّي أحلّل الذهنيّة الأميركيّة، منذ أصولها في القرن السابع عشر، وإنّي لأعترف بأني أشترك في هذه الذهنيّة. فهذه المحاولـة تُشـكِّل، بهـذا المعنـى، اعـترافٍ الشخصـي العلـني. إنَّ العنصـر الذي يكشف سيرتي الذاتيّة أكثر من سواه، ذاك الذي احتفظت به، دائمـاً وحتـى اليـوم، في سـرّي، هـو أنَّني إنسـانٌ متـديّن. فـإنّ طبـيعتي الدينيّة تندرج بدقّة في تقليد أجدادي الطهـرانيّين. وأنـا أشـعر مثلهم بالحاجة إلى كشف أكثر أفكاري الدينيّة حميميّةً، أمام الملأ.

إنَّ تقسيم العالم بين المختارين وغير المختارين، يشكّل أيضاً جـزءاً لا يتجزّأ مـن طـريقتي الشخصيّة في الـتفكير. ومـع ذلـك، فـإنّ تقسـيم العـالم يرتكـز عنـدي علـى اقـتران بـين المسـيحيّة والماركسـيّة. وإنـي أنـزع إلى أنَّ أضـمّ إلى المختـارين، المسـتَغَلّين والمحـرومين والمهمَّشـين، أولئـك الذين حطّم الألم قلوبهم. وعلـى العكس مـن ذلـك، فإني أصنّف بـين غـير المختـارين، المسـتغلِّين والأغنيـاء، أولئـك الـذين جمَّـدت الحيـاة السهلة روحهم.

كان والدي يقوم بعمل الإشراف على المنشورات الدينيّة في صحيفة

"الواشـنطن بوسـت". وترعرعـت في حضـن الكنيسـة الموحِّـدة (Unitarienne). والموحِّدون يشكّلون جماعة أقرب إلى المتحرّرين فكريّاً، منهم إلى بدعة مسيحيّة حقيقيّة. إنَّهم في أقصى الطُهرانيَّة، لأنهم يحاولون تطهير الدين إلى أقصى حدّ. وقد بلغوا من التطهير للدين، مبلغاً نزعوا معه إلى إلغاء الله من أفكارهم. وقد كان والدي لاأدريّاً.

عندما بلغت سنّ العاشرة، حاول جيراننا الجدد هدايتي إلى الديانة المرمونيّة. وكانت السيدة كثيراً ما تردّد العبارة: "لقد كُتب في الكتاب المقدس أنَّ...". فبلغت بي الرغبة في معرفة ما جاء في الكتاب المقدّس، حداً دفعني للقيام بقراءته من الصفحة الأولى إلى الأخيرة، وأنا ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة، في غفلة من أهلي، وبوصفي طهرانيّاً حقيقيّاً. فقد كنت أريد، بكلّ بساطة، أنْ أعرف ما كُتِب في الكتاب المقدّس، دون الإيمان به البتّة. فالطهرانيّون يرفضون المعجزات، وبتوليّة مريم، والقيامة، الخ... كنت بالأحرى راغباً في الاطلاع على معتقدات الآخرين، المسيحيّين الحقيقيّين، بدافع الفضول المعرفي ليس إلاّ.

وخلافاً لرغبتي، وجدتني مسحوراً كُليّاً بقراءة الكتاب المقدّس، وخصوصاً بشخصيّة يسوع وأقواله. وكانت المشكلة في أنني لم أكن أرى أيّة علاقة بين وصايا يسوع وطريقة مواطنيّ المسيحيّين، في التفكير والعيش. وكان يبدو لي أنهم يعبدون المال بدل عبادتهم لله.

وتلك هي كلمات الكتاب المقدّس، التي بدت لي أجمل الكلمات: "أحبّوا أعداءكم". فقرّرت أنْ أمضي العمر كلّه كداعية للسلام. يصرّح يسوع أنَّ الأوّلين سيكونون الآخِرين، والآخرين سيكونون الأوّلين. فارتأيت بالتالي أنّه هو أنموذج الاشتراكيّة الكامل. وفي الخمسينيّات والستينيّات، كان المناخ مناخاً سوريالياً بالنسبة إلى مراهق من واشنطن، أخذ يفكر أنَّ يسوع آثر النزعة السلميّة على النزعة العسكريّة، والاشتراكيّة على الرأسماليّة، والروحانيّة على الماديّة.

إنَّ دراستي المبكّرة للكتاب المقدّس، هي بالتأكيد في أصل أفكاري المنشقّة. فأقامت تمييزاً واضحاً بين ديانة الكهنة وديانة الأنبياء.

فالأنبياء يريدون أن يَحطّوا من قدر الأغنياء، ويرفعوا من شأن الفقراء، ويُنشئوا حكماً يقوم على العدالة الاجتماعيّة والسلام. والكهنة، بالمقابل، هم في خدمة السلطات الزمنيّة. وهم بطبيعة الحال، رجعيّون، في حين أنَّ الأنبياء هم، دون استثناء، ثوريّون. فثمّة نبيّ يجد أنَّ بلدَه يهين الله، فيملأه هذا الأمر بالحزن والغضب في آن واحد، وينتابه شعور يستحيل التعبير عنه، من البغض والحبّ حيالَ شعبه.

ينزع المثقّفون اليساريّون إلى جهل هذا الجانب من لاهوت الكتاب المقدّس، لأنهم أُصيبوا بخيبة أمل، بسبب ديانة الكهنة اليمينيّين. وهم يخلطون بين الله والكنيسة. ويرون أنَّ الفاتيكان يدين الكثير من أشكال التعبير عن الحبّ، ولكنّه يغمض العين دون الحروب والاستغلال. فيستنتجون إذن أنَّ الديانة قد فقدت كلَّ قيمة.

يطيب لي الاعتقاد أنَّ "كارل ماكس" و"سيغموند فرويد" و"برتراند راسل" و"جان بول سارتر" و"البير كامو"، ما كانوا ليأخذوا بالإلحاد، لو كانوا عاشوا ما عشت. لقد كانت حياتهم أيسر من حياتي.

إنَّ الله يكشف عن ذاته في أعماق التجربة الإنسانيّة. فيكتشف الإنسان ماهيّة الروح، في اللحظة التي يكتشف فيها الله. لقد عشت من حيث لا أريد، حياة طهرانيّ نموذجي من القرن السابع عشر، أقلّه من وجهة النظر اللاهوتيّة. واضطررت للاحتفاظ بإيماني في سرّي، لأنّ الإيمان ليس مألوفاً، لا سيّما لدى المثقّفين.

"احتفظت طويلاً بالصمت. سكتّ. تمالكت نفسي. سأصرخ مثل امرأة في مخاض. سألهث وسأعصف بكلّ شيء دفعةً واحدة. سأجتاح الجبال والهضاب". (أشعيا 42/ 14 – 15).

عندما خاض بلدي الحرب في فييتنام، قلت في نفسي إنّني وُلدت في بلد لا يجوز لي أنْ أعيش فيه. كنت آنذاك أرى في ألمانيا النازيّة تجسيداً للشرّ، واعتقدت أنَّ بلدي كان آخذاً في الحلول محلّ ألمانيا الهتلريّة في هذا الدور. كانت الولايات المتحدة الرأسماليّة والامبرياليّة، في نظري، مملكة "مامون" (إله المال) و"رجاسة الخراب". فهجرت إذن بلدي التاعس، نهائيّاً، عام 1968. وكنت أرى أقرب أصدقائي يموتون: في فييتنام، في السجون، انتحاراً، ومن تعاطي المخدّرات بإفراط. مَن تُراه سيعيد إليَّ "كريستوفر"، "مارك"، "جوفروا"، "دافيد"؟ من؟ متى؟ كيف؟ أين؟ لست أدري أيّ ألم هو الأشدّ، الألم لمشاهدة وطني مسؤولاً عن موت أفضل أصدقائي، أو لمشاهدته يقتل أحلامي الشخصيّة!

الانتقام! أريد الانتقام!

تعلّمت في الستينيّات، إذ كنت أقرأ مؤلّفات اللاهوتي الماركسي الألمانيّ، "بول تيليش" (Paul TILLICH)، أنَّ الإنسان متديّن بطبيعته، وأنّ الصحة العقليّة تتوقّف على الصحة الروحيّة، التي تحتاج بالضرورة إلى احترام ما هو مقدّس وسرّي ومتعالٍ. ويرى "تيليش" أنَّ الإيمان الديني هو حجر الزاوية في الثقافة. وفي غيابه، تصبح الحياة ناقصة وسطحيّة. فليس بوسع الإنسان أن يحيا، دون أنْ يمنح ذاته مبرِّراً لوجوده، يصبح بدوره، بمعنى ما، إلهَه. في أغلب الأحيان، تكون الآلهة المعبودة، آلهة منظورة ودنيويّة، مثل المال، النجاح، القوميّة، الحياة الاجتماعيّة. والمشكلة مع هذه الآلهة، أنها ينتهي بها الأمر إلى استعباد الإنسان. وهي تخيِّب حتماً الذين يكرّمونها. ويرى "تيليش" أنَّ الحلّ الآخر يقوم على عبادة الإله غير المنظور، الأبوي والمتعالي، إله الديانات الموحِّدة، ذاك الذي يتجلّى عندما يفقد الإنسان كلَّ إيمان في الآلهة الأرضيّة. لقد قرأت كلَّ ما توفَّر لي من مؤلّفات "تيليش". إنَّه معلّمي، وأنا تلميذه.

لقد أصبحت الولايات المتحدة إمبراطورية المادّيّة. إنَّ العيش فيها بالغ الصعوبة، ما لم يكن الإنسان مستعدّاً للتضحية بحياته من أجل الرأسماليّة. فالمال فيها يُعتبر القيمة العُليا. كنت أرفض أنْ أجعل من المال قيمة أساسيّة، وما كنت أريد للأغنياء أنْ يعتبروني دونهم، لأني ما كنت أملك مثل ما يملكون من مال.

ربّما كان أبناء جيلي يعانون أكثر من سواهم، من نزاع بشأن القيم. كنّا نرى بوضوح أنَّ واقع الحياة الأميركيّة، واقع الحرب والمادّيّة، منسلخ عن القيم الروحيّة، التي كُنَّا قد تعلّمناها، في كنائسنا وكنسنا.

كنّا ندرك خبث أهلنا وسياسيّينا. كنّا ضحايا غسل كبير للأدمغة. وكان الهدف الرئيسي من تربيتنا، هو إقناعنا بأنّنا كنّا نعيش في أفضل بلد في العالم. وكان واضحاً لدينا أنَّ هذه الفكرة لم تكن سوى أسطورة وكذبة.

كان صديقي "مارك"، بعد أنْ حاول سرقة "مصرفه"، بهدف إطلاق ثورة اشتراكيّة، يعبّر هكذا عن احتقارنا لمادّيّة بلدنا:

"ليس لبنية مجتمعنا المريض بكاملها، سوى أساس واحد: تكديس المال والاحتفاظ به"[2].

قال يسوع إنَّ بيتاً أُسّس على عبادة المال، لا يمكنه الاستمرار في البقاء[3]. إنّ التفسّخ الاجتماعي والسيكولوجي والأخلاقي، الذي يسم الولايات المتحدة اليوم، هو نتيجة ماديّتها. ستسقط الإمبراطوريّة الأميركيّة، لا بسبب الشيوعيّين، بل بالأحرى بسبب الرأسماليّين.

إنَّ الهيبّيّين والثوريّين المتمرّدين من أبناء جيلي، كانوا ينبذون فظاعات مجتمع الاستهلاك والامبرياليّة، وكلاهما ثمرتا الأخلاقيّة الطُّهرانيَّة. ومع ذلك، فإنّ البعض منّا اكتشفوا الإله الذي من أجله قَدِمَ الطهرانيّون الأوائل إلى "إنجلترا الجديدة"، الإله الذي هو، في آن

واحد، صارم وعطوف، خفي وحميمي، مخيف وجذّاب، الذي هو ينبوع حكمة وحبّ، وفرح وإيمان وشجاعة. وعندما يقتحم الله حياتنا، نفقد القدرة على التخلّص منه.

عام (1602) درس "وليم برادفورد" الكتاب المقدّس، وكان هو أيضاً في سن الثانية عشرة. وكان يرجو، وهو في الغابة الأميركية، العيش مع الله، في سلام يفوق ما كان توفّر له من سلام في بلده الأصلي.

وأنا بدوري، كنت أرجو الله أن يلهمني، وأنا في منفاي، بوضوح أكبر ممّا كان فعله، لو كنت بقيت في بلدي الأصلي. إنَّه لم يُخيّب أملي.

"سيحكم بين الأمم
وسيقضي لشعوب كثيرة
سيضربون سيوفهم سِكَكاً ورماحَهم مناجل.
لن ترفع أمةٌ على أمَّة سيفاً
ولن يتعلّموا الحربَ بعد ذلك" (أشعيا 4/2)

# مراجع الخاتمة

[1] "جان فرانسوا ليزيه"– (Jean François LISEE) : " في عين النسر"– مونتريال– بوريال– 1990– ص 455.

[2] صحيفة ذا بوسطن فينكس" (The Boston PHENIX)– 11 أيلول (سبتمبر)– 1973– ص 3.

[3] إنجيل القديس متى 24/6

# الفهرس


الأب الياس زحلاوي ومعرفة المسيح – محمد سعيد حمادة..... 5

مقدمة المؤلف ..... 9

الفصل الأول – الفردانيّة..... 17

مراجع الفصل الأول..... 39

الفصل الثاني – المختارون وغير المختارين..... 41

مراجع الفصل الثاني..... 56

الفصل الثالث – القسوة ..... 57

مراجع الفصل الثالث ..... 75

الفصل الرابع – الاعتراف العلني ..... 77

مراجع الفصل الرابع..... 86

الفصل الخامس – شهادة جويس كارول اوتس ..... 87

مراجع الفصل الخامس..... 96

الفصل السادس – تحليلات أخرى للذهنيّة الأميركية..... 97

مراجع الفصل السادس ..... 115

خاتمة ..... 117

مراجع الخاتمة..... 126

الفهرس..... 127

# صدر للمؤلف

1) **باللغة العربية:**

1. **عرب مسيحيون أو مولد إيمان**
مطبعة الأديب ( دمشق) – 1969

2. **حول الإنجيل وإنجيل برنابا**
المطبعة البولسية (لبنان) – 1971

3. **المدينة المصلوبة (مسرحية)**
منشورات وزارة الثقافة – 1973

4. **الطريق إلى كوجو (مسرحية)**
منشورات اتحاد الكتاب العرب – 1976

5. **المجتمع والعنف (مترجم)**
منشورات وزارة الثقافة – 1976

6. **مجد الله هو الإنسان الحي**
بالتعاون مع أفراد أسرة الرعية الجامعية (دمشق) – 1977

7. **يقينان وسؤالان**
منشورات جيش التحرير الفلسطيني – 1979

8. **تاريخ المسرح في خمسة أجزاء (مترجم)**
منشورات وزارة الثقافة 1979– 1989

9. **فكر هيجل السياسي (مترجم)**
منشورات وزارة الثقافة – 1981

10. **وجبة الأباطرة (مسرحية)**
منشورات اتحاد الكتاب العرب – 1985

11. **شهود يهوه، من أين وإلى أين؟**
مطبعة دار العلم (دمشق) – 1991

12. **الصوفانية** (1982–1990)
مطبعة الحرية (لبنان) – 1991

13. **اذكروا الله**
(ترجمه عن الفرنسية أديب مصلح) المطبعة البولسية – 1995

14. **سيدة الصوفانية**
القاهرة – 1997

15. **ومن الكلمات بعضها**
المطبعة البولسية – 1997

16. **من أجل فلسطين**
دار عطية – بيروت 2004

17. **هروبي الأخير مع يسوع المسيح (مترجم عن الفرنسية)**
المطبعة البولسية – 2004

18. **أمن أجل فلسطين وحدها؟**
منشورات مركز الغد العربي للدراسات – 2006

19. **الصوفانية خلال 25 عاماً (ثلاثة مجلدات)**
دار المجد للطباعة والنشر – 2008

20. **تأملات**
دار المجد للطباعة والنشر – 2009

21. **تأملات في إنجيل القديس يوحنا**
دار المجد للطباعة والنشر – 2010

22. **مجموعة من العظات**
دار المجد للطباعة والنشر – 2010

23. **عندما يطلب البابا الغفران (مترجم عن الفرنسية)** – 2010

24. **مجموعة من العظات** – 2011

25. **قد يكون لي ما أقوله** – 2014.

26. **الأب الياس يعقوب (ملاك الساحل السوري)** = 2014

**2- En Francais**

1- **Soufanieh**
Chronique des apparitions et manifestations de Jésus et de Marie à Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

2- **Souvenez - vous de Dieu**
Messages de Jésus et de Marie à Soufanieh.
Damas (1982-1990) Editions François - Xavier de Guibert. 1991. Paris.

**3- SOUFANIEH En SYRIE et DANS LE MONDE**
Damas - 2014.